ملخص البحث

تهدفُ الدارسةُ إلى بيانِ مقاصدِ البلاغةِ العربيةِ، والوقوفِ على ما تحقَّق منها وما لم يتحقَّق، وأسبابِ عدمِ تحققهِ والمعوقاتِ التي تعوقُ قيامَ هذا العلمِ بدوره المنشود، مقارنةً بغيره من العلوم المعنيَّةِ بتحليلِ الخطابِ، وقد مرَّت البلاغةُ العربيةُ في مَقاصِدها بمراحلَ مختلفةٍ بدايةً بمادة الدراسة ومرورًا بالتذوّق وصناعةِ الأديب وانتهاءً بالبحث في وجوه الإعجازِ القرآنيِ ، ومن نتائجِ الدراسةِ أنَّ النقّادَ والبلاغيين لم يعنوا بالوقوف مع أيّ نصٍ كيفما جاء واتُفق، وإنَّما اتجهتْ عنايتُهم إلى النصوص الفصيحةِ التي تُصور قيمَ مجتمعِهم وأخلاقِهم وفكرِهم وثقافتِهم وعاداتِهم وحضارتِهم وميولِهم واتجاهاتِهم، وأنَّ عنايةَ البلاغيين بالنصوص الفصيحةِ تدحضُ كلَ فريةٍ تزعمُ أنَّ البلاغةَ ليستْ عربيةً، وإلَّا فكيف يحرصون على أن تكون النصوصُ فصيحةُ- سعيًا لوحدة اللغة- وفي الوقتِ نفسِه يفرطون في ثقافتِهم عن طريق نقل بلاغةٍ غيرِ بلاغتِهم؟! كما عُنيتْ البلاغةُ العربيةُ بالخطابِ انتاجًا وتحليلًا فاتجهتْ عنايتُها بإعدادِ الأديبِ القادرِ على تذوّق النصوصِ ومعايشتِها وتمييزِ جيدِها من رديئِها، وجعلتْ البلاغةُ هذا **المطلبَ مقصِدًا من مقاصدها العامة** التي تتجاوز فيه الغرضَ الدينيَّ؛ بغيةَ الوقوفِ مع الأسرارِ البلاغيةِ في فنون القولِ ومراحلِ الإبداعِ، كما يمثلُ الحديثُ عن وجوه الإعجازِ القرآنيِ الكريم مقصِدًا دينيًا للبلاغة العربية، وقد تنوعتْ مؤلفاتُ العلماءِ في ذلك تبعًا لاختلاف توجّه أصحابِها ما بين مفسرين ومتكلمين وبلاغيين، وكان هدفُ أصحابِها هو الزودُ عن حمى القرآنِ الكريمِ ضدَّ من يشكّكون في إعجازه.

Summary
The study aims at showing the purposes of the Arabic rhetoric and stepping on what was achieved and what was not and the reasons for not achieving them and the obstacles that hinder this science from doing its aspired role compared with other sciences that are interested in discourse analysis. The Arabic rhetoric, in its purposes, passed through different stages starting from the content, taste, the author's manufacture ending the research with the sides of the Quranic miracles.
From the results of the study is that critics and scholars of rhetoric didn't give interest to the text as it is but they cared for fluent texts that depict the concepts, values and morals of their society, their culture, customs, civilization and their attitudes. The attention of the scholars of rhetoric to fluent texts defies every claim that rhetoric is not Arabic in origin or why they are careful that the texts must be fluent – seeking language unity – at the same time, they transmit their culture via rhetoric other than theirs?!
The Arabic rhetoric was interested in discourse in production and analysis, thus it directed its attention to preparing an author capable of tasting texts, co-living with them and discriminating the good and the bad from them. Rhetoric made such purpose one of its general purposes by which it exceeds the religious purpose aiming at knowing the rhetoric artistic secrets of telling and innovation stages, speaking about the Quranic miraculous sides as a religious purpose of the Arabic rhetoric.Scientists' works varied in such aspect according to the difference of their attitudes including interpreters, speakers, scholars of rhetoric, and their aim was to defend the Holy Quran against those who doubt its miracles.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه من الرسل... وبعد...

فمن المعلوم أنَّ نموَّ أيِّ علمٍ من العلوم لا يتوقَّف على جانب واحد من جوانبه مهما كثرت الدراسات فيه، ومهما كانت جادةً ومثمرةً، وإنّما حركةُ العلمِ في نموّهِ وتطوّرِه كحبل ممدود بين طرفين، طرف يبحث في مسائله ومناهجه وقضاياه وأعلامه، وطرف يبحث في مقصده ووجهته والعقبات التي تعوق نموه وتطوره... وتعظم مَهمَّةُ أصحاب الطرف الثاني في هذه الآونة التي تشابهت فيها الطرائق وتزاحمت فيها المفاهيم والمصطلحات واتسعت الهوَّة بين الناشئة وتراثها.

وقد كَثُرَ الحديثُ في الآونة الأخيرة عن "الفكر المقاصدي" أو ما يُعرفُ بـ" علم المقاصد" ويُعنى هذا العلم بتحديد المقاصدِ العامَّةِ لكل علم، فما من علم إلَّا وله غاية يسعى إلى تحقيقها بواسطة مجموعة من الوسائل والاجراءات.

وبرغم ما لدينا من معارف عن نشأة البلاغة العربية وتاريخها وقضاياها ومسائلها ومَدَارِسِها وخصائصها وأعلامها إلَّا أنَّها لا تكفي في تحديد مَقْصِدِ وهدف هذا العلم، خاصة أنَّ ما دُوِّن في الحديث عن الأصول الفلسفيَّة والتاريخيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة للبلاغة العربيَّة لا يرقى أن يُقدِّم لنا صورةً كليَّةً متسقةً عن أهداف ومقاصد علم البلاغة؛ إذ إنَّ مدار الأمر في بيان المقاصدِ العامَّةِ لعلم البلاغة على المقاصد الكليَّة المستنبطةِ من المقاصد الجزئيَّة، ومخطئ من يحاول الاكتفاء في بيان مقاصدِ العلمِ بالجزئيات دون الكليات؛ لما في ذلك من هدم للكل، ومخطئ -كذلك- من يقصرُ المقاصدَ على الكليات دون الجزئيات؛ لأنَّه لا وجود للكلِّ بدون الجزء إلَّا في الخيالات والأوهام، وإنَّما العبرة أن تلتقي المقاصدُ الجزئيةُ المقاصدَ الكليَّةَ على ما سيأتي بيانُه .

وقد كان (العلوي) المتوفى في القرن الثامن ٧٤٥هـ يشتكي غياب النظرة المَقْصِديَّةِ لعلم البلاغة العربية؛ لما فيه من الغموض ودقة الرموز، واحتوائه على الأسرار والكنوز، حتى استولت عليه يدُ النسيان والذهول، وآلت نجومُه وشموسُه إلى الانكساف والأُفول، ولم يختص بإحرازه من العلماء إلا واحد بعد واحد، وطالما قيل: إذا عظم المطلوبُ قلَّ المساعدُ" وما ذلك إلا لقصور الهمم عن بلوغ غاياته، وعجزها عن إدراكه والوصول إلى نهاياته[1]

فأحرى بنا أن تتضافر جهودنا العلمية وتتحد أهدافُنا ومقاصدُنا البلاغيةُ؛ وصولاً إلى تحقيق الغاية المنشودة من هذا العلم .

والسؤال الذي تطرحه الدراسة: هل مسائل البلاغة معلَّلةٌ في مباحثها وفروعها، وهو ما

---

(١) – كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – تأليف/ يحى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني – تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٥هـ ١٩٩٥م ص٣-٤.

يعرف بالمقاصد الجزئية؟ وإذا كان الأمر كذلك: فهل لنا أن نُقدِّم مقصِدًا كليًّا لعلم البلاغة من خلال هذه المقاصد الجزئيَّة؟

وإذ لم يكن الأمر كذلك: فهل لنا أن نعيد دراسة البلاغة في ضوء مقاصِدِها، بما يضمن لها استمراريتها وتوهجها؟

والإجابة على هذه الفرضيَّات تتطلبُ الاعتمادَ والاستنادَ إلى نصوص أهل العلم؛ إذ لا مقاصدَ بدون نصوص، كما تتطلبُ البحثَ والتتبعَ والتقصي لأسس وتاريخ ونشأة هذا العلم، بما يتيح لنا الوقوف على هدف هذا العلم ومقصده.

أهمية هذه الدراسة:

في ضوء المعالجةِ البلاغيَّةِ من منظور مقاصدي ينبغي أن نفرِّق بين الفكرة والعلم ، فالفكرُ المقاصديُّ حول البلاغة بدأ منذ نشأتها، وكما يقول أحد الباحثين:" فهذه الفكرة ليست بدعًا في التناول فهي موجودة في تراثنا وفي كثير من العلوم، لكن وجودها يكاد يكون باهتًا، يُذكر في فرع من الفروع أو صفحة من الصفحات أو فقرة من الفقرات، وليت ذكر الوظيفة يكون له تأثير في تناول العلم أو تجديده وتطويره، وإنَّما تُذكر وظيفة العلم دون الإفادة منها في أبواب العلم وفصوله، ودون تحكيمها ومحاكمة تاريخ العلم وواقعه في ضوء هذه الوظائف"[٢]

أمَّا النظرةُ العِلميَّةُ للبلاغة العربيَّة في ضوء علمِ المقاصدِ فأظنُّها أوَّلَ دراسةٍ – فيما أعلم– من نوعها تتعلق بالبحث حول مقصدِ هذا العلمِ، ولذا تكمنُ أهميتُها في الأمور الآتية:

تشتركُ البلاغةُ العربيَّةُ مع علمِ المقاصدِ في اعتماد كلٍ منهما على الناحية المعياريَّة، ومن شأن ذلك أن يَضبِط عمليةَ التفكير، ويحدِّد الغاياتِ، ويخلق جوًّا من الاتفاق وتعدد الوسائل والاجراءات.

المعالجةُ البلاغيةُ في ضوء علم المقاصد تَعصِمُنا من الانفتاح المضرِّ والتحرُّرِ غير المحسوب لمن يحاول جرَّ البلاغة العربيَّة إلى دراسة الأحاديث اليومية واللهجات العامية ولغة الباعة والجائلين، وتعصمنا كذلك من تلك الدعاوى التى تقصر علمَ البلاغةِ على المجال التطبيقي (شعرًا ونثرًا) دون أدنى اعتبار لجوانبَ أخرى لا تقلُّ شأنًا عنها؛ كالدراسات المقارنة، والدراسات النقديَّة والمنهجيَّة وأعلام الفكر البلاغيّ.

من شأنِ المعالجةِ البلاغيةِ في ضوء علم المقاصد استثمارُ الطاقاتِ، وتوزيعُ المواهبِ والقدرات، وتجاوزُ العصبياتِ، وتوحيدُ الأهدافِ والغاياتِ، والتسامحُ في الوسائل والاجراءات.

من شأنِ تناول العلومِ في ضوء مقاصدها " أن نتبيَّن في كل علم رُتَبَ الأفكارِ، ومدارجَ القضايا، ومقاماتِ الموضوعاتِ، ومنازلَ المسائلِ، ويتضحَ فقه النسبِ بين هذا كله، فنقدِّم ما من حقِّه أن يتقدَّم، ونؤخِّر ما من واجبه أن يتأخَّر، ونولي القضايا ذات الأولويَّة أهميتها، ونمنحها العناية بها في ضوء قضايا العلم وغاياته، ومن خلال التحديات التي يواجهها العلمُ، ويفرضها الواقعُ، ويتطلبها المستقبلُ كل

---

[٢]ـ ينظر مقال الدكتور/وصفي أبو زيد على الرابط التالي: https://islamonline.net/22178- تاريخ الدخول ٢٠١٨/١٠/١٠.

هذا وفق ميزان حسَّاس في ضوء مقاصد العلم من غير طغيان ولا خسارة "[٣]

خطة البحث:

اقتضى البحثُ في مقاصدِ البلاغةِ أن يكون في مقدمةٍ، وثلاثة مقاصدِ، وخاتمةٍ، وقائمةٍ بالفهارسِ والمراجعِ.

أمَّا المُقدِّمةُ: فهي لأهميةِ الموضوعِ والدافعِ إليه والمنهجِ الذي سرت عليه، وخطة البحث.

وأمَّا المَقْصِدُ الأوَّلُ: فجاء بعنوان: " الفكرُ المقاصديّ للبلاغة العربيَّة في ضوءِ النص الفصيح.

المَقْصِدُ الثاني: جاء بعنوان: " الفكرُ المقاصدي للبلاغة العربيَّة في ضوءِ تنميةِ الذوقِ وصناعةِ الأديبِ.

والمَقْصِدُ الثالثُ: تحدثت فيه عن" الفكرِ المقاصدي للبلاغة العربيَّة في ضوءِ الكشف عن وجوه الإعجازِ القرآني.

وأمَّا الخاتمةُ: فقد جاءت في أعقابِ تلك الفصولِ مُوضِّحةً أهمَّ النتائجِ التي توصلتْ إليها الدراسةُ

و بعد...

فهذا ما تهيَّأ إعدادُه وتيسَّر إيرادُه، والحمد لله على ما وفّق وأعان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه من الرسل.

صالح أحمد عبد الوهاب

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

البريد

الالكتروني:

saleh_hahmed@hotmail.cim

المَقْصِدُ الأوَّلُ

البلاغةُ العربيَّةُ في ضوء النصُّ الفصيحُ ...قراءةٌ في حدِّ البلاغةِ.

لعلَّ أوَّلَ ما ينبغي الوقوف معه – ونحن نعرض لمقاصد البلاغة– أن نبدأ بالحديث عن طبيعة المادَّةِ التي تتناولها البلاغة العربيَّة بالدراسة، لنقف على حدود هذا العلم ومسئوليته ومساحته العلميَّة وما امتاز به دون غيره من العلوم التي أُرِيد لها أن تزاحمه بقصدٍ أو بغير قصدٍ.

ولا مناص للبحث وهو يناقش مقصد البلاغة من حيث طبيعة المادَّة المدروسة من أن يطالع مقدِّمات كتب علمائنا الكرام البَرَرَة ، ففي المقدِّمات هواجسُ النفس وخواطرُها وآمالُها وطموحاتُها، وهي أرض خصبةٌ وحقلٌ ثرٍ، زرع فيه النقَّاد والأُدباء والبلاغيون حبَّات عقولهم وبذور أفكارهم، وتعهدوها بالسقي والعناية حتى سَلِمَتْ لنا البلاغةُ صافيةً عربيةً أصيلةً، بدايةً من عصرها الأوَّلِ منذ نشأتها في حضن القرآن الكريم والكشف عن وجوه إعجازه، ومرورًا بالبيان النبوي منذ عصر تدوينه، ومحاولةَ البحث في فنون الأدب وإنتاج الخطاب – شعرا ونثرا– وانتهاءً بالعصر الحديث الذي نعيشه بمستجداته ومنجزاته المعرفيَّة... إلاَّ أنَّ العصر الحديث زاحمت فيه بعضُ المصطلحاتِ البلاغةَ العربيةَ؛ ما بين بنيويَّة، وأسلوبيَّة، وتداوليَّة، وعلم

---

[٣]ـــ ينظر مقال الدكتور/وصفي أبو زيد– https://islamonline.net/22178

النصّ، أو ما يعرف بلسانيات النصّ[٤] على يد(دي بوجراند)

ولتكن لنا وقفةٌ في هذا الفصل مع طبيعة المادَّة التي تتعامل معها البلاغة العربيَّة- وأقصد بالمادَّة هنا مادَّة الدراسة(النص إنتاجا وتحليلا) وذلك من خلال استدعاء ما قاله الأوائل من البلاغيين في تحديد مَقْصِدِ وغاية علم البلاغة فيما يتعلق بطبيعة المادَّة والنصوص المراد دراستُها، ولا يكون ذلك إلا بالرجوع إلا نصوص أهل العلم، إذ لا مقاصد بدون نصوص كما قلت سابقًا.

حدُّ البلاغة:

لا أجدُ – فيما قرأتُ – علمًا حظي بحظ وافر من التعريفات كما حظي به علم البلاغة العربيَّة؛ حتى أنَّك بمطالعة كتب القدماء التي عُنيت بالدَّرس النقدي والبلاغي تعتريك دهشةٌ ويكتنفُك الذهولُ روعةً وإجلالًا وتقديرًا لهذا العلم؛ ناهيك عن كتب الإعجاز القرآني وتفسيره، وما حظيت به البلاغة العربيَّة من عبارات الثناء والتقدير والإجلال، وكأنَّ البلاغة – من بين علوم العربية- قد ملأتْ عليهم مناحي أغراضهم واستوعبت نشاطَ حياتِهم، ولم لا؟!... والبيان هو أوَّلُ نعمةٍ بعد الخلق؟! قال تعالى: (الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)[٥] ولم لا؟! ولم يفتخرْ رسولنا- صلى الله عليه وسلم- بكونه فقيهًا أو مفسرًا أو طبيبًا، وإنَّما افتخر بكونه فصيحًا...ولم لا؟! ومناط التحدي للقرآن الكريم لم يكن إلَّا من جهة نظمِه وحسنِ تأليفِه، على الرُغْم من تعدد وجوه الإعجاز العلمي والنفسي والغيبي... يقول العلوي: إنَّ الرسول –صلى الله عليه وعلى آله- ، مع ما أعطاه الله من العلوم الدينيَّة، وخصَّه بالحكم والآداب الدنيويَّة، فلم يفتخرْ بشيء من ذلك، فلم يقل: أنا أفقه الناس، ولا أنا أعلم الخلق بالحساب والطب، بل افتخر بما أعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة، فقال عليه السلام: ... " أوتيتُ خمسًا لم يعطهن قبلى أحدٌ؛ كان كلُ نبيٍّ يبعثُ إلى قومه، وبُعِثتُ إلى كلِ أحمرٍ وأسودٍ وأُحلتْ لى الغنائمُ، وجُعلتْ لى الأرضُ مسجدًا وطهورًا، ونُصرتُ بالرّعب بين يدى مسيرة شهر، وأوتيتُ جوامعَ الكلمِ[٦]" [٧]

وأوَّلُ ما يطالعنا من هذه التعريفات – التي عُنيتْ بطبيعة النصوص التي هي مادَّةُ البلاغة

---

[٤]- لسانيات النص علم معرفي جديد تكون في النصف الثاني من الستينات والنصف الأول من السبعينيات ، يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى ، وذلك بدراسة جوانب عدة أهمها: الترابط أو التماسك ووسائله وأنواعه والإحالة وأنواعها، والسياق النصي، ودور المشاركين في النص (المرسل والمتلقي) ينظر في ذلك الاتساق النصي في التراث العربي" تأليف أ. نعيمة سعدية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد خضير – بسكرة- الجزائر – مجلة كلية الآداب – العدد الخامس- ٢٠٠٩.

[٥] - سورالرحمن الآيات ١-4

[٦] - أخرجه مسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم: ٥٢١.

[٧] - ينظر الطراز ص ١٨ بتصرف يسير.

العربية- ما ذكره العتّابيُّ [٨] في البيان والتبيين عن حدِّ البلاغة:

وهو حديثٌ لو أعملنا فيه عقولنا وأقلامنا لكان هاديًا لنا في تحديد مسيرة هذا العلم من حيث طبيعة المادَّة المدروسة والنصوص التي يستهدفها.

ولا ترخَّصَ في مناقشة تعريف العتَّابيّ؛ حتى لا نقع فريسةً لثقافة مستهجنة تقوم على مضغ رجيع ثقافة الأمم الأخرى أو رقاع ثقافات مهلهلة.

ومن هنا عظمَ الاعتناء بتعريف العتَّابيّ؛ لما يقدمه لنا من حدود فاصلة بين البلاغة العربية وغيرها من العلوم المهتمة بتحليل الخطاب كالأسلوبيَّة وعلم النصّ والتداوليَّة.

جاء عن الجاحظ أنه قال: حدثني صديق لي قال: قلت للعتابيّ: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ... قال: فقلت له: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع مني، واستمع إلي، وافهم عني، أو لست تفهم، أو لست تعقل. فهذا كله وما أشبهه عيّ وفساد"[٩]

وستكتفي الدراسة بالتعريف الذي ذكره العتَّابيّ للبلاغة غاضَّةً الطرف عن غيره من التعريفات، لعدم تعلقها بفكرة الفصل من ناحية، ولأنَّ تعريف العتَّابيّ- في ظاهره- يعد مدخلًا لدراسة أجناس أدبية غير فصيحة في البلاغة العربية، وهذا من الخطورة بمكان.

فضلًا عن ذلك فإنَّ تعريفات المتقدِّمين اهتمَّت ببعض مباحث البلاغة ؛ كالفصل

---

[٨]- هو كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود ابن عمرو بن كلثوم الشاعر وهو ابن مالك عتاب بن سعد بن زهير بن جشم ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية ومنصور النمري تلميذه وراويته وكان منقطعا إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه... وأخبرني الحسن حدثنا ابن مهرويه قال حدثني أبو عصام محمد بن العباس قال قال يحيى بن خالد البرمكي لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلا عن رسائله وشعره فلن تروا أبدا مثله. ينظر الأغاني- لأبي الفرج الأصفهاني- الناشر : دار الفكر – بيروت الطبعة الثانية-تحقيق : سمير جابر- جـ١٣ صـ١٢٢، وقد تحدث عنه الجاحظ في البيان والتبيين ج١ ص ٤٤ – طبعة دار الطتب العلمية – بيروت

[٩] – تنظر هذه التعريفات في البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المتوفى ٢٥٥- الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- تحقيق: موفق شهاب الدين- عام النشر ٢٠٠٩م – ج١ ص ٦٨ وما بعدها ، وكتاب الصناعتين – تأليف أبي هلال الحسن بن عبد الله سهل العسكري- تحقيق:الدكتور مفيد قميحة- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م- ص١٩ وما بعدها. وينظر في ذلك أيضا: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، المتوفي ٤٥٦هـ- تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد- دار الجيل- بيروت- الطبعة: الخامسة-١٤٠١هـ ١٩٨١م. ص٢٤١- ٢٤٩ .

والوصل والإيجاز والإطناب...إلخ، وعنيت بطرائق الأداء وفنون القول فيها، بينما تجاهلت الحديث عن مادَّة الدراسة وطبيعة النصوص التي تتناولها البلاغة، باستثناء تعريف العتابي **(كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ)** حيث ربط البلاغة بالإفهام سواء أكان بأسلوب فصيح أم بغيره، وهو تعريف يفتح الباب على مصرعيه أمام أجناس أدبية لم تتوفر فيها معايير الفصاحة فضلًا عن البلاغة، وفرق بين بلاغة عربية تعنى بالفصيح، وعلوم أخرى كالأسلوبية والتداولية وعلم النص تعنى بالفصيح وغير الفصيح " ونحن نبحث هنا في المعاني الصحيحة الصادرة عن الأسوياء من الناس في فن قول سليم فصيح، ونخص الفصيح دون العامي، لأمرين: **الأوَّل:** حتى تكون المعاني التي اعتمدناها من التراث مما تعارف عليها أكبر مجموعة من الدارسين لشيوعها؛ إذ فن القول غير الفصيح –وهو ما يكون في لهجات– لا يعدو لهجة ذاك القوم والبيئة الزمانية والمكانية التي شاع فيها، **الثاني:** أنَّ... الفصيح صورة لوحدة التفكيروطريق لتلاقي المفاهيم مع تنوع الجنس واختلاف الزمان والمكان"[١٠]

أقول: على الرُغم من أنَّ العتَّابيّ رجل فصيح من أدباء وشعراء الدولة العباسية، وشاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر، قال عنه يحيى بن خالد البرمكي لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتَّابي فضلًا عن رسائله وشعره فلن تروا أبدا مثله. [١١] إلَّا أنَّ التعريف الذي نادى به (كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ) **موهم ومقلق**، خاصة أنه يتعلق بطبيعة النصوص التي يتناولها علم البلاغة.

ومبدأ الوهم: أنَّه يقصر دور البلاغة على الإفهام دون مراعاة للفصاحة، فيدخل فيه الإفهام بالإشارة، والرأس، وحركة العين، وكلام المولدين، والعجم، والصبيان، والحيوانات، والطيور.

ومبدأ القلق: أنَّه يفقد البلاغة العربية ما امتازت به من معالجة النص الفصيح(شعرًا ونثرًا) فيجعلها بمنزلة واحدة مع ما يعرف الآن بعلم الأسلوبية، والتداولية، وعلم النص، ويجعل النص الفصيح متساويا مع النص غير الفصيح، فيكون أدب الأمم الأخرى– الأدب الأجنبي– و–الأدب الشعبي– كله بيانًا، وكيف يكون كله بيانًا؟!

ولو مرَّ هذا التعريف للبلاغة العربية –في القرن الثالث–دون التعليق عليه من الجاحظ لاتّخذه زعماء التداولية والأسلوبية وعلم النص سندًا علميًا يلج منه الفصيح وغير الفصيح

---

[١٠]ـ ينظر مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة.ص١٤٢ بتصرف يسير.

[١١]ـ الأغاني– لأبي الفرج الأصفهاني– الناشر : دار الفكر – بيروت الطبعة الثانية–تحقيق : سمير جابر– جـ١٣ ص ١٢٨،

للبلاغة العربية؛ لأنَّ كلام العرب الفصحاء مفهم، كما أنَّ كلام غيرهم من المولدين والعوام وأهل الإشارة مفهم أيضًا، وكل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ على حد تعريف العتَّابي.

استدراك الجاحظ على تعريف العتابي

رفض الجاحظ تعريف العتَّابيّ للبلاغة " كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ" [١٢] بدعوى أنّ ذلك التعريف يقلل من قيمة البيان واللسان، لأنّنا نستطيع أن نفهم إشارات الأخرس، وحمحمة الفرس، وعواء الكلاب، وغيرها من الحيوانات والطيور، فاشترط الجاحظ في الإفهام أن يكون بلفظ فصيح؛ لأنَّ عمومية التعريف تجعل اللكنة، والفصاحة، والخطأ، والصواب، والإغلاق، والإبانة، والملحون، والمعرب، كله سواء وكله بياناً، وكيف يكون ذلك كله بيانا؟! فنراه يقول:" والعتّابيّ حين زعم أنَّ كلَّ مَنْ أفْهَمَكَ حاجتَه فهو بليغ، فلم يَعنِ أنَّ كلَّ مَنْ أفْهَمَنا مِنْ معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، أنَّه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه... فمن زعم أنَّ البلاغة أن يكون السامع يَفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواء، وكله بيانًا. وكيف يكون ذلك كله بيانًا؟! ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام، لما عرفه. ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا. وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي، وإن كان هذا الاسم إنَّما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيرًا من حوائجهم. فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيرًا من إرادته. وكذلك الكلب، والحمار، والصبي الرضيع... **وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء.** [١٣]

وبهذا القيد- مجاري كلام العرب الفصحاء- الذي أضافه الجاحظ لتعريف العتابي **وضع حدًا فاصلًا بين كلام الفصحاء وغيرهم، وميَّز علم البلاغة الذي يعنى بالفصيح عما عداه من علوم أخرى تشمل الفصيح وغير الفصيح كالأسلوبية والتداولية وعلم النص.**

وقد أثار التزامُ البلاغةِ العربيةِ بالنص الفصيح بعضَ الانتقادات الواسعة التي رُميتْ بها البلاغةُ العربيةُ- في العصر الحديث-؛ كالعجز عن مسايرة الفنون الأدبيَّة كما يقول أحمد الشايب: كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والمسرحية[١٤]، والاقتصار على فترة زمانية معينة دون مسايرة لطبيعة اللغة التي تتطور دلالاتها ومناهج دارسيها

---

(١٢) ـ البيان والتبيين، جـ١ صـ٨٤.

(١٣) – البيان والتبيين، ج١- . ص ١١٥.

(١٤) – ينظر: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلة لأصول الأساليب الأدبية – تأليف: أحمد الشايب- ط١١ مكتبة نهضة مصر -٢٠٠٠م ص٣٨،

كما يقول دكتور/ سعد مصلوح[١٥]**، والاهتمام بالشكل على حساب المضمون.** [١٦]

وربما غاب عن هؤلاء أنَّ علم البلاغة عربيٌّ أصيل، وأنَّ القوم فصحاء وأرباب بيان، ولم يُتصوروا يومًا أن يكون نتاجهم الأدبيُّ بغير الفصحى، فهم أمةٌ عُرفوا بين الأمم بفصاحة اللسان وامتلاك البيان، حتى كانت معجزة نبيِّهم من جنس ما نبغوا فيه؛ وهي فصاحة اللسان وفن القول، التي تَنِم عن إتقان العرب للغتهم تحدثًا واستماعًا... وأنَّ الهدف من التزام البلاغة العربية بالنصوص الفصيحة، هو توحيد اللسان العربيّ وما يتبعه من توحيد الثقافة والفكر والمجتمع والعبادة، وتناول البلاغة الألفاظ غير الفصيحة يقعد ويقصر عن ذلك الهدف النبيل، فضلًا عن ذلك فإنَّ البلاغة العربية منذ نشأتها وهي مرتبطة بفصيح القول شعرًا ونثرًا، ومن ثمَّ فهي تسعى إلى تأسيس رؤيةٍ عربيةٍ تتجلى فيها وحدة اللغة العربية، كالصلاة والصوم والحج، وهو مقصد من أجلِّ مقاصد البلاغة العربية...وأنَّ العامية على انتشارها واتساع محيطها لا تحمل ما تحمله الفصحى من قيم العرب وثقافتهم وميولهم واتجاهاتهم ومعارفهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولا يُتصور منها أن تكون وحدةً للتفكير أو نقطةَ تلاقٍ في المقاصد والغايات؛ لأنَّها لا تعدو أن تكون نتاج تجمع لهجي في فترة زمنية معدودة ومساحة جغرافية محدودة، بخلاف الفصحي الممتدة عبر عصورها المختلفة وأطرافها المتشعبة المترامية.

بالإضافة إلى كل ما سبق فإن العاميَّة " لا تحمل المعاني المفيدة للعرب جميعا- مع تدرج الزمان والمكان- مهما ترقَّت وهذَّبت، ويعود الكلام البليغ في صورته البديعة إلى ما أئتلف من المعاني ودلالتها، وإلى ما انسجم من الألفاظ وتراكيبها"[١٧]

فإن قيل: إنَّ الهدف من زحزحة البلاغة عن النص الفصيح هو من باب مسايرة العصر وخلق مساحة مشتركة بين البلاغة والأسلوبية والتداولية وعلم النص.

فالجواب: أنَّ العلوم لا تتطور من تلقاء ذاتها أو بتغيير أسمائها ومسماها، وإنما بجهود وثقافة وسواعد رجالها، وأن تقديم الأسلوبية تعقبها التداولية وعلم النص بدلاء عن البلاغة لا يعكس تطورًا للبلاغة العربية ، وإنَّما يدل على اضطراب الرؤية لدى دعاة التجديد كلما سمعوا صيحة طاروا إليها، وكلما ظهرت نظرية لعنت اختها، " ومما لا أشك فيه، ولا يشك فيه غيري... أننا نظلم العلم حين نقول أنَّه جَمُدَ؛ لأن العلم لا يجمد، وإنَّما الذي جَمُدَ هم أهله

---

(١٥) – ينظر البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفق جديدة- تأليف: سعد مصلوح- مجلس النشر العلمي- الكويت- الطبعة الأولى- ١٩٧٣. ص٧٠.

(١٦) – ينظر في ذلك كتاب: الأسلوب، لأحمد الشايب ص٣٧، الأسلوب والأسلوبية – تأليف: عبد السلام المسدي-دار الكتب الجديدة- بيروت-الطبعة الأولى- ٢٠٠٦م- ص٤٤.

(١٧)ــ ينظر مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة. ص١١٥

وحامله، وحين نقول ازدهرت البلاغة وتطوَّرت وتقدَّمت فهذا ليس وصفًا نابعًا من علم البلاغة، وإنَّما هو وصف منحه علماءُ البلاغة لعلمِ البلاغة، فإذا كان واقعُ الدرس البلاغي غيرَ مأمولٍ، فليس للبلاغة ذنب في هذا الواقع غير المأمول، ونحن المسؤولون عن هذا، وقل مثل هذا في كل علومنا الأساسية من نحو وعقائد...إلى آخره، ومن الواجب أن نقف لنبين بعض الحقائق، وأولها طبيعة علوم البلاغة والجهة التي انتزعت منها واستخرجت منها، وهل يمكن أن نحذف منها مسألة؟ أو أن نزيد عليها مسألة من خارج ما استخرجت منه؟ وهل يمكن أن نزيد عليها مسألة من طبيعة ما استخرجت منه؟[١٨]

ولعلَّ السبب وراء تلك الصيحات ودعوات التجديد أنَّ المحدثين لم يفطنوا إلى أهمية الفصحى في الدرس البلاغي؛ لأن حديث الأوائل عن الفصاحة والبلاغة تميَّز بالغموض والخفاء والتداخل، إن أبانوا عن المراد تارة سكتوا عنه تارات، حتى عدَّه الإمام عبد القاهر من باب الرمز والإيماء والإشارة، وعبر عن ذلك صراحة في دلائله قائلًا:" ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى (الفصاحة) و(البلاغة) و(البيان) و(البراعة) وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلب وموضع الدفين ليُبحث عنه فيخرج"[١٩]

ولنا أن نتساءل: هل حديث النقَّاد والبلاغيين عن مقصد البلاغة العربية من حيث طبيعة المادَّة التي تتناولها بالدراسة من باب الرمز والإشارة أم أنه من باب الخبيئ الذي يحتاج إلى استخراج؟

وفرق بين دلالة الرمز والإشارة ودلالة الخبيئ في كلام عبد القاهر، فالأولى تحتاج إلى فهم هذه الرموز وتلك الإشارات، والثانية تحتاج إلى استخراج هذه الخبيئ، وكما يقول الأستاذ الدكتور أبو موسى: " وهذه هي الرموز والإشارات التي ما زال عبد القاهر يحاورها ويداورها حتى تركها لنا في كتابيه الجليلين...والمهم أن نراجع كلامه في هذا التراث أو في هذه البلاغة؛ لأن هناك فرقًا بين كلام هو كالرمز والإيماء وكلام هو إشارة إلى مكان الخبيئ ليُطلب، فنحن أمام الرمز والإيماء نحاول فهم هذا الرمز وهذا الإيماء، وهذا شيء، والقول بأن هنا خبيئًا عليك أن تستخرجه شيء آخر؛ لأنك إذا استخرجته لم يعد غامضًا ولا رمزًا ولا إشارة"[٢٠]

ونقطة الانطلاق لاستخراج الخبيئ المستتر من هذه الحدود تكمن في مجاوزة تلك الصورة الشكلية الخارجية اللفظية لتعريفات البلاغة–

---

[١٨]ـــ المسكوت عنه في الدرس البلاغي ص١٠١،١٠٠ بتصرف.

[١٩]ـ ينظر دلائل الإعجاز_ تأليف: الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني– تحقيق: الشيخ محمود محمد شاكر– مطبعة المدني – بالقاهرة– الطبعة الثالثة– ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ص٣٤.

[٢٠]ـ المسكوت عنه في الدرس البلاغي ص٣٤.

وإن كان لا ترخص فيها- إلى ما وراءها من معان ذهنية، وهذا ما فعله الجاحظ في مناقشة تعريف العتَّابي ، وأعني بالوراء هنا ذلك الفضاء الرحب من الدلالات الكامنة وراء هذه المفاهيم من أفكار العرب وثقافاتهم وقيمهم وميولهم واتجاهاتهم وعاداتهم؛ فإن اللفظ – كما يقول الرازي- يدل على المعنى الذهني لا الخارجي، وللألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان، ولهذا السبب يقال: الألفاظ تدلُّ على المعاني، لأنَّ المعاني هي التي عناها العاني، وهي أمور ذهنيَّة، والدليل على ذلك أنَّا إذا رأينا جسمًا من البعد وظنناه صخرة قلنا: إنَّه صخرة، فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته وظنناه طيرًا قلنا: إنَّه طير، فإذا ازداد القرب علمنا أنَّه إنسان فقلنا: إنَّه انسان، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية يدل على أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية لا الأعيان الخارجية(٢١)

وإذا أردت أن تعرف عقلية امرئ، وفكره، وثقافته، وميوله، واتجاهه، فاعمد إلى ما قصد من معان ودلالات، فكل تأليف لابد أن يسبقه تفكير، أو كما قال الأخطل:

إنَّ الكلام لفي الفؤاد وإنَّما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلا(٢٢)

فاشتراط الجاحظ شرط الفصاحة في التعبير عن الأغراض والمشاعر يعكس لنا إدراك الجاحظ للمعاني الكامنة وراء طبيعة المادَّة التي يتناولها هذا العلم بالدراسة، من وحدة الثقافة والفكر واللسان العربي، يقول الجاحظ: " المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرًا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا"(٢٣)

وقل مثلَ ذلك في كل تعريفات البلاغة، وثِقْ أنَّها لا تهدف إلى تعريف البلاغة فحسب، وإنَّما تهدف إلى نقل فكر وقيم وأخلاق وحضارة وهوية قائليها" وفرق بين كتب تجرِّد اللغة من هذه المضامين التي تربّي النفوس، وبين كتب تحمل كل هذا التراث الإنساني في شعرها ونثرها والمختار من آدابها وحكمتها، وأعتقد أنَّ هذا سر نجاحهم في تربية الأجيال، وسر تخلفنا في هذا ؛ لأننا عنينا بعلوم العربية أكثر من عنايتنا بالعربية نفسها، وسرنا على عكس ما ساروا عليه"(٢٤)

---

(٢١)- ينظر تفسير الرازي المسمى" بالتفسير الكبير، أو مفاتح الغيب" الناشر- دار الفكر- لبنان- الطبعة الأولى- ١٤٠١هـ ١٩٨١م جـ١ ص٣١.

(٢٢)- هذا البيت منسوب للأخطل، وشَغَلَ حيزا كبيرا بين علماء الكلام فيما ما يتعلق بصفة الكلام ، ومع ذلك لم أعثر عليه في ديوانه بتحقيق قباوة ولا تحقيق مهدي محمد ناصر الدين.

(٢٣)- البيان والتبيين ص٦٠

(٢٤)- ينظرالمسكوت عنه في التراث البلاغي- تأليف: الشيخ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة_

إضافة إلى ما سبق أنَّ البلاغة العربية لم تعنَ بفصيح القول إلَّا لأنَّها تقترب من لغة القرآن وأساليبه، وبها يتمايز كلام عن كلام ومعان عن معان...ولذا ظلت النصوص الفصيحة هي عناية البلاغيين، وميدان الدرس البلاغي، و بقيت معايير الجودة في الألفاظ هي الشرط الأساسي الذي لا يفارق البلاغة منذ كلام الجاحظ (مجاري كلام العرب الفصحاء) حتى تمَّ التأكيد على ذلك في تعريف المتأخرين للبلاغة العربية: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[٢٥]

ولو لم يكن للمتأخرين غير هذا التعريف لكفاهم، فقد حدَّ هذا التعريف -إلى يومنا هذا- من زحزحة البلاغة العربية عن صدارتها، وميَّزها عن سائر العلوم المعنية بالخطاب والنص – انتاجًا وتحليلًا- فضلًا عن ذلك فإنَّ الحديث عن الفصاحة وقضية المطابقة المتمثلة في تعريف البلاغة عند المتأخرين تعدُّ هي البداية الحقيقية للفكر المقاصدي في البلاغة العربية، وأرى أن تعريف المتأخرين للبلاغة يستوعب التعريفات السابقة ولا يلغي أحدًا منها، فهو يجمع بين المتكلم، والمخاطب، والسياق، وطرائق الأداء، ولم تزد تعريفات الأسلوبية والتداولية وعلم النص في أرقى تعريفاتهم على ذلك، ومن هنا يتضح أن هذا التعريف هو المدخل السليم لتحقيق رؤية بلاغة كلية متسقة قادرة على تجاوز بلاغة الشاهد والمثال إلى فضاء أرحب وأوسع وهو بلاغة النص، يقول الأساذ الدكتور/ عبد الحافظ البقري: " وهذا التعريف للبلاغة نراه من خير ما يكشف عن معناها، ويحدد بوضوح غايتها، كما أنه يصل المنشئ بعدة أمور:" يصله بالغرض الذي يتكلم فيه، مدحًا كان أو ذمًا، فخرًا أو هجًاء، خطبًة أو رسالة، قصًة او مقالًة، ويدعوه إلى أن ينسج أسلوبه على النحو الذي يناسب ذلك الغرض، ويصله أيضا بمن يخاطبه؛ فيسوق له من الكلم ما يوائم حاله ومنزلته الأدبية والاجتماعية، ويصله كذلك بمستوى معين من الثقافة؛ بحيث يكون ملمًا باللغة وقواعدها، دارسا لأساليب البلغاء من شعراء وخطباء وكتّاب، تتوفر له من خلال تلك المدارسة ثروة من الأفكار والألفاظ، يستمد منها كلما شاء ويضيف إليها، مما يجعلها نمطًا خاصًا يمثل أسلوبه وذوقه.. كما أن ذلك التعريف يقتضي من كل من يريد أن يتصف بالبلاغة أن يكون لديه قدر من الذوق الرفيع والحس الرقيق، بحيث يميز بين مقام ومقام، وبين شخص وآخر"[٢٦]

وقد يتصدَّرُ بعضُ المدافعين عن علم الأسلوبية والتداولية وعلم النص بأنَّ الجاحظ عندما تحدَّث عن مفهوم البيان إنَّما قصد به البيان بكل ألوانه وأشكاله كما هو واضح من قوله: " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير،

مصر -الطبعة الأولى- ٢٠١٧م – ص٣٩بتصرف.

[٢٥]- ينظر شروح التلخيص – دار الكتب العلمية- بيروت- بدون تاريخ- الجزء الأول- ص١٢٢.

[٢٦]- البلاغة معيار النقد الأدبي- تأليف دكتور/ عبد الحافظ إبراهيم البقري- رسالة دكتوراه- ص١٢، ١٣.

حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنَّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع" (٢٧)

وتلك دعوة مدحوضة ولا تعدُّ مسوغًا لهم في تجاهل قيد الفصاحة؛ لأنَّ الجاحظ في النصِّ السابق يتحدث عن البيان بصفة عامة، أمَّا ما يتعلق بالإبداع الأدبي وفنون القول فلا يُعتد فيه إلَّا بالبيان المنطوق والمكتوب فقط، كما هو واضح من قوله:" ... والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم" (٢٨) ورفضه لتعريف العتابي خير دليل على أنَّ البيان المعتبر به في البلاغة العربية ما كان جاريًا على طرائق العرب الخُلَّص.

وختامًا يمكن القول: أنَّ البلاغة التي نشأت في حضن القرآن، وكشفت لنا على وجوه إعجازه ، واستوعبت البيان النبوي، وأظهرت تفوقه على كل كلام بشري ، وواكبت عصور الإبداع الأدبي بفنونه المختلفة أتعجز اليوم أن تحلل نصًا؟! لذا لا أرى تلك الهجمة المستعرة على البلاغة العربية إلا تحرشًا بالعربية وعلومها، والحمد لله أنَّ علماءنا الكرام البررة لم يكتبوا لعصرهم، وإلَّا لضاعت البلاغة العربية، ولذا أرى: أنَّه لا ينبغي للكاتب أن يكتب وهو منصرف إلى عصره وبيئته فقط، بل عليه أن يستشرف المستقبل، وأن يحتاط لعقيدته ودينه ولغته ومجتمعه وثقافته وحضارته وتاريخه وأمته... ففصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة لمن يزاولها ولا يكون ذلك إلا بالمحافظة على النص الفصيح، وكما يقول الرافعي:" فإن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته، إلا من لا حَفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق. فإذا كان المعجِز فى لغة من اللغات بإجماع علمائها وأدبائها هو من قديمها خاصة، فهل يكون الْجديد فيها كمالاً يسمو أم نقصاً يتدلى؟ . . . ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة، ولا يدنو الفهم منها إلا بالمِران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء عليها وإحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها، وكل هذا مما يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها، ضرباً من الفساد والجهل(٢٩)

(٢٧)- البيان والتبيين الجزء الأول ص٦٠.

(٢٨)- البيان والتبيين الجزء الأول ص٦٠.

(٢٩)- ينظر الكتاب: تحت راية القرآن المعركة بين القديم والجديد – المؤلف: مصطفى صادق الرافعي– الناشر: المكتبة العصرية – صيدا – بيروت– الطبعة الأولى – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م ص١٦

المقصد الثاني

تنمية الذوق... وصناعة الأديب

لم يكن العرب- في جاهليتهم- في حاجة إلى من يُقعِّد لهم هذا المَقْصِدَ(تنمية الذوق) لامتلاكهم الموهبة الفطرية التي بوَّأتهم ناصية البيان فيما أبدعوه لنا من فنون القول- شعرًا ونثرًا، ، ولذا لم يدونوا في ذلك كتبًا تعبر عن آراهم وأفكارهم وثقافتهم النقديَّة، وإنَّما غاية ما يمكن أن تقع أيدينا عليه من معايير الجمال والتذوق عندهم مجرد شذرات من هنا وهناك تعبر عن إحساس صاحبها النفسي والذاتي وإعجابه بالعمل الفني الذي ينتجه أو يُلقى إليه، لإبداء الرأي فيه، ولعلَّ ما دار في سوق عكاظ -من مناظرات ومساجلات بين كبار الشعراء – أوضحُ دليل على ذلك.

ومجتمع هذا حاله -من الفصاحة والبلاغة – يفاخر ببيانه عندما يولد لهم شاعر موهوب أو خطيب مفوه كما يفاخر بأنسابه، لم يكن في حاجة- كما قلت- إلى من يُقعِّد لهم قواعد في اكتساب مهارة التحليل وأسس الجمال، أو يضع لهم معايير في النقد والتذوق، وإنَّما يكفي أن يعرض عليهم النصُّ حتى يميزوا صحيحَه من فاسدِه، وحسنَه من رديئِه، وذهبَه من حطبِه، وغثَّه من سمينِه، ونازلَه من صاعدِه... وحالهم عند نزول القرآن خير دليل على ذلك، فلم تنل فصاحتهم من ألفاظه ومعانية، ولم تسجل كتب السير عنهم أي مسبَّة من جهة نظمه أوتأليفه، وإنَّما كان منهم – على شدَّة معارضتهم- أن أزعنوا لفصاحته وبلاغته مقرين أنَّه ليس بكلام الجن ولا بكلام الإنس، وأنَّ له لحلاوة وأنَّ عليه لطلاة، وأنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وأنَّه يعلو ولا يعلى عليه، كما حُكِي عن الوليد بن المغيرة.

وقد سَلِمَ هذا المقصد-أيضًا- للرعيل الأوَّلِ من الصحابة، فإن قلتَ: أين كان هذا العلم فى زمن الصحابة الذين يعرفون أسرار العربية، وانكشف لهم أوجه الإعجاز؟ قلتُ: كان مركوزًا فى طبائعهم"(٣٠)

ثم خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ لم يكونوا على قَدْرٍ من موهبة أسلافهم وبيانهم، فَضَعُفتْ الملكات ومرض اللسان العربي نتيجة الاحتكاك بثقافات ومعارف وحضارات الأمم الأخرى، ممَّا اضطر اللغويين إلى قصر عصور الاحتجاج اللغوي على الجاهليين والمخضرمين وصدر الإسلام، دون غيرهم من المولدين، بداية من بشار المتوفي ١٦٧هـ حتى عصرنا هذا؛ خوفا على اللغة من أن تنالها أيدي التحريف والتغيير، ويستوى المعرب بالملحون والإغلاق بالإبانة واللكنة بالفصاحة... وبرغم ما في القرن الثاني والثالث من شعر فصيح وشعراء موهوبين لم يشفع لهم ذلك في تجاوز الاحتجاج اللغوي بشعرهم، ولعل هذا يفسر لنا ظهور بعض المؤلفات التي اتخذت من صناعة الأديب سبيلا لها، وهو ما يمكن أن نسميه الدربة والمران للوصول للمعرفة المكتسبة عن طرائق العرب في التعبير عن مشاعرهم وأغراضهم.

(٣٠)- ضمن شروح التلخيص- الجزء الأول- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ص ٥٣ – بدون تاريخ.

وقد واكبت البلاغة العربية هذه المرحلة في مقصدها الثاني، وشُغل اهتمامُ البلاغيين بإعداد الأديب الأريب، القادر على تذوق النصوص ومعايشتها وتمييز جيدها من رديئها، بل جعلت البلاغة هذا **المطلب مقصدًا من مقاصدها العامة** التي تتجاوز فيه الغرض الديني؛ بغية الوقوف مع الأسرار البلاغية في فنون القول ومراحل الإبداع، وكما يقول العلوي متحدثًا عن علم البلاغة:" واعلم أنَّه يراد لمقصدين...المقصد الثانى: مقصد عام لا يتعلق به غرض دينىّ: وهو الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة فى غير القرآن، فى منثور كلام العرب ومنظومه، فإنَّ كلَ مَنْ لا حظّ له فى هذا العِلْمِ لا يمكنه معرفة الفصيح من الكلام والأفصح، ولا يدرك التفرقة بين البليغ والأبلغ"(٣١)

وفي هذا النص النفيس ما يؤكد أسبقية البلاغة العربية إلى الاهتمام بالخطاب- انتاجًا وتحليلًا- وليس كما يدَّعي بعض المحدثين أنَّ القرآن قد استوعبها، فليس لها مُتَقَدِّمٌ عنه أو مُتَأخرٌ، أو أنَّها معنيَّة بتحليل الخطاب القرآني دون غيره، أو أنَّ الأجيال القادمة في حاجة إلى علم آخر يهتمُ بإنتاج الخطاب وتحليله بأجناسه الأدبية المختلفة؛ شعرًا ونثرًا وروايةً وقصةً ومقالًا ومسرحيةً وملحمةً ... وغير ذلك من اتهامات تَنِمُ عن قصور في الإحاطة بمقاصد هذا العلم وعدم معرفة بغايته وأهدافه.

والعلوي في تقسيمه مقاصد البلاغة قسمين(ديني) و(عام) ليس بدعًا من القوم بل هو تقرير وتقعيد لعناية البلاغيين بهذا المقصد العام، فقد سبقه إلى هذا أبو هلال العسكري الذي أبان عن حاجة الأديب إلى علم البلاغة سواء في مرحلة إنتاج الخطاب أو مرحلة تحليله ممَّا يؤكد تلك العناية وهذا الاهتمام فنراه يقول:" لأنَّه إذا لم يفرق- أي الكاتب- بين كلامٍ جيّدٍ، وآخرَ ردئٍ؛ ولفظٍ حسنٍ، وآخرَ قبيحٍ؛ وشعرٍ نادرٍ، وآخرَ باردٍ، بَانَ جَهْلُه، وظهرَ نقصُه، وهو أيضًا إذا أراد أن يصنعَ قصيدةً، أو ينشىء رسالةً- وقد فاته هذا العلم- مزجَ الصّفوَ بالكدرِ، وخلطَ الغررَ بالعررِ، واستعمل الوحشيَّ العكرَ؛ فجعل نفسَه مهزأةً للجاهل، وعبرةً للعاقل... وإذا أراد أيضًا تصنيفَ كلامٍ منثورٍ، أو تأليفَ شعرٍ منظومٍ، وتخطّى هذا العلمَ ساء اختيارُه له، وقبحتْ آثارُه فيه؛ فأخذ الردىَء المرذولَ، وترك الجيدَ المقبولَ، فدلّ على قصور فهمِه، وتأخّر معرفتِه وعلمِه، وقد قيل: اختيار الرجل قطعةٌ من عقله؛ كما أنّ شعره قطعةٌ من علمه"(٣٢)

وقد تنوعتْ المؤلفاتُ التي عُنيت بصناعة الأديب نوعين : النوع الأوَّل : ويَتَنَاوَلُ العلومَ الأدبيَّةَ الواجب توافرُها في الكاتب، ونصَّت على هذا المقصد صراحةً؛ كما كان من ابن رشيق في كتابه(العمدة) وابن الأثير في كتابه(المثل

(٣١)- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- تأليف- الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني- تحقيق: محمد عبد السلام هارون- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ ١٩٩٥م- ص١٨

(٣٢)- كتاب الصناعتين ص ١٠، ١١.

السائر) وابن قتيبة في كتابه(أدب الكاتب) في حين عُنِي النوعُ الثاني من المؤلفات بالحديث عن أهمية الذوق وتنميةِ الحس الأدبيّ من خلال بيان طرائق العرب في التعبير عن المعاني والأغراض، وشرح ما غمض من أسرار العربية، كما هو واضح في بعض الممارسات التطبيقية، كما كان من أبي عبيدة معمَّر بن المثنَّى في كتابه(مجاز القرآن) وابن قتيبة في كتابه(تأويل مشكل القرآن) الرَّمانيّ ت٣٨٤هـ، في كتابه" النكت في إعجاز القرآن" والخطَّابيّ ت ٣٨٨هـ في كتابه" بيان إعجاز القرآن" والباقلانيّ ت٤٠٣هـ في كتابه" إعجاز القرآن" وعبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ في كتابيه" دلائل الإعجاز" و" أسرار البلاغة" والزمخشري ت٥٣٨هـ في تفسيره" الكشاف" والقاضي عياض ت ٥٤٤ في كتابه " الشفا في التعريف بحقوق المصطفى لأعجاز القرآن" وابن عطية ٥٤٦ في تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز" والرازي ت ٦٠٦هـ في تفسيره " التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب" وكتابه" نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"

إذاً فنحن أمام مصطلحين : مصطلح الدربة والصنعة: متمثلاً في إعداد الأديب، ومصطلح الموهبة الفطرية متمثلًا في التذوق ، والسمة البارزة في مؤلفات الصنف الأوَّلِ هي العناية بتحصيل العلوم الأدبية من لغةٍ ونحوٍ وصرفٍ وأدبٍ و بيانٍ وعروضٍ، كما أنَّ السمة البارزة في الصنف الثاني هو العناية بتوضيح ما غَمُضَ من معاني القرآن على بعض المولدين والأعاجم الذين دخلوا في دين الله إبَّانَ الفتح الإسلامي، والكشف عن وجوه إعجاز النظم القرآنيّ.

ولك أن تتفق أو تختلف في هذا، إلَّا أنَّنا لا نختلف في أنَّ المقصد الثاني من مقاصد البلاغة(تنمية الذوق وصناعة الأديب) وثيقُ الصلة بالمقصد الثالث(الكشف عن وجوه إعجاز القرآن) إذ إنه بمثابة التوطئة والتمهيد والإعداد للبحث في وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهما مقصدان متدخلان، وكثيرا ما تمَّ الجمع بينهما في معرض حديث البلاغيين والمفسرين عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، إلَّا أنَّ الدراسة عُنيت بكل واحد منهما على حدا، فجعلتْ مدارَ صناعة الأديب على الدربة والمران وجعلتْ مدارَ الكشف عن وجوه الإعجاز على التذوق ، لذا لم يكن هناك ترخصٌ في ترك الحديث عن هذا المقصد العام من مقاصد البلاغة العربية قبل التصدي للبحث في كتاب الله، ولتكن لنا وقفة مع مصطلحي (الذَّوق) و(الدربة والمران)

أولاً: مصطلح الذَّوق:

جاء في لسان العرب أنَّ الذَّوْقُ: مصدر ذاقَ الشيءَ يذُوقُه ذَوْقاً وذَواقاً ومَذاقاً، فالذَّواق والمَذاق يكونان مصدرين ويكونان طَعْماً، كما تقول: ذَواقُه ومذاقُه طيّب؛ والمَذاق: طَعْمُ الشيء. والذَّواقُ: هو المأْكول والمشروب... وهذا من المجاز أَن يستعمل الذَّوْق وهو ما يتعلّق بالأَجسام في المعاني كقوله تعالى: ذق إنك أَنت العزيز الكريم، وقوله: فذاقُوا وبالَ أَمرِهم" (٣٣)

(٣٣)ـ لسان العرب لابن منظور– دار إحياء التراث العربي – بيروت– الطبعة الثالثة– ١٤١٩هـ ١٩٩٩م الجزء الخامس ص ٧١، ٧٢– مادة (ذ– و– ق)

ويُفهمُ من هذا أنَّ الأصل في عملية التذوّق أن تكون في المحسوسات، أي المطعومات أو المشروبات، وقد يستعمل الذَّوق في غير ذلك في المعاني المعقولة، ومن ذلك استعماله في تذوّق الأدب ونحوه، ويراد به حينئذ الإحساس بالعمل الأدبي والقدرة على تقويمه ، وهذه القدرة تحصل إمَّا بملكة مركوزة في الطبائع أو بدُرْبَةٍ وصناعةٍ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر؛ فالملكة تحتاج ما يصقلها من استقراء كلام العرب وتتبع خواص استعمالهم وطرائقهم في التعبير، والاعتماد على الصناعة وحدها لا يخلق تذوّقًا، وإلَّا لكان الناس كلُهم كتَّابًا ومبدعين، ومن ثمَّ عرف ابن خلدون الذَّوق بأنَّه: موهبة دالة على حصول ملكة البلاغة للسان... وتحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرار لكلام العرب" (٣٤)

وقد تنبَّه النقد العربي – منذ وقت مبكر– إلي عملية الذَّوق، ولم لا؟! وهو أوَّلُ خطوة من خطوات النقد، حتى وإن بدا في بداية الأمر ملاحظةً ذاتيَّةً تُعبر عن وجهة نظر صاحبها، فما استحسنه الذوق فهو حسن، وما استقبحه فهو قبيح، وقديمًا قال رجل لخلف الأحمر:" إذا سمعتُ أنا الشعرَ أستحسنُه، فما أبالي ما قلتَ فيه أنتَ وأصحابُك" (٣٥)

وعلى الرُغْم من ارتقاء النقد في أصوله وقواعده ومذاهبه واتجاهاته في العصر الحديث؛ نظرًا لتعدد المعارف والعلوم التي أمدت الناقدَ بالموضوعية والتعليل لم يؤدِ ذلك إلى إلغاء الانطباع الذَّاتي والانفعال الوجداني، و هما جوهر الدراسة الأدبية" ولعلَّه من أجل ذلك– أعني عدم قدرة الناقد على التجرد من ذوقه الشخصي– يرى بعضهم أنَّ من الأفضل ألَّا يتجه الناقد إلى تناول عمل أدبيَّ لم يستجب له، أو يُحْدِثْ في نفسه إثارة معينة، وأكثر من ذلك في بيان أنَّ الذَّوق الشخصي لا يمكن أن يختفي تمامًا من ساحة النقد الأدبي مهما تطور، أو تزيَّا بزي الموضوعية والعلم، وهو ما يراه بعضهم من أنَّ مقاييس النقد الأدبي ليست– في حقيقتها– إلا دراسة الذَّوق السليم، فإن كل فلسفة صحيحة للفن– على حد تعبير آبر كرومبي– "ما هي إلا مجرد شرح منطقي للذوق السليم، ومن ناحية أخرى أليس اختلاف المعايير الأدبية بين ناقد وآخر، وجيل وجيل، وشعب وشعب لونًا من ألوان اختلاف الأذواق وتباينها؟ ثم أليس إيثار الناقد– وهو يعتمد الأسس الموضوعية في أحكامه – لمنهج دون

(٣٤)ـ ينظر مقدمة بان خلدون، وهي مقدمة الكتاب المسمى" كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر– تأليف : العلامة عبد الرحمن ابن خلدون– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الثامنة – ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م ص٤٨٣ بتصرف.

(٣٥)ـ ينظر"طبقات فحول الشعراء – تأليف: محمد بن سلام الجمحي – تعليق: الأستاذ/ طه أحمد إبراهيم– دار الكتب العلمية – بيروت– ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م ص ٢٧،٢٨ .

آخر، وتطبيقه على العمل الذي بين يديه، ضربًا من هذا التباين أيضا؟" (٣٦)

وما أُقرَّ مُؤخَّرًا – بعد هذه الرحلة الطويلة عبر مذاهب وثقافات وفلسفات واتجاهات ومناهج ونظريات– عن قيمة الذّوق فقد أولته البلاغة العربية عنايتها منذ نشأتها وجعلته مقصدًا من مقاصدها العامة؛ يقول ابن الأثير: "واعلم– أيها الناظر في كتابي– أنَّ مدار علم البيان على حكم الذَّوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب– وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذًا، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا– فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعًا، وأهدى بصرًا وسمعًا، وهما يريانك الخبر عيانًا، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا، وكلّ جارحة منك قلبًا ولسانًا، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما مثلي فيما مهّدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفًا ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلبًا، فإنَّ حَملَ النصالِ، غيرُ مباشرة القتال." (٣٧)

وتوارد كلمة الأدباء والبلاغيين حول قيمة الذَّوق تعكس لنا مدى حاجة الأديب إليّه؛ إذ يعد التذوّق عاملًا رئيسًا في بناء شخصية الأديب ومعيارًا فنيًا من معايير بناء النصّ أو تحليله، وبدونه لا يستقيم بناء أو تحليل أو نقد، وإن شئت فقل؛ لايستقيم أيُ عمل فنيّ، فالمبدع فيما يلقيه إليّنا لا بد له أن يأخذ وأن يترك من الألفاظ والمعاني، وفي أخذه تذوّقٌ، وفي تركه – أيضًا– تذوّق، وهذا مقصد أصيل في البلاغة العربية، أوْلتْه عنايتَها ورعايتَها؛ رغبةً في الوقوف مع جوهر النصّ ولبُابِه، وعدم الاكتفاء بالنظرة العُجْلَى السطحية التي تكتفي بظاهره، وهذا ما أقرَّته البلاغة في أول عهدها مع النصّ القرآنيّ إلى أن أصبحت علمًا راسخًا على يد عبد القاهر الجرجاني، ولا أكون مبالغا إذا قلت: إنَّ البلاغة التي استوعب النصَّ القرآنيَّ والبيان النبويّ فهمًا... وإدراكًا... وتذوقًا... لا يعجزها أن تستوعب ما عداهما من نصوص، ولا أكون مبالغًا إذا قلت أيضًا: إنَّ أيَّ كتاب أُلّف في البلاغة العربية في الفترة ما بين كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة إلى عهد عبد القاهر، وما أعقب قضية (النظم) من دراسات تطبيقيّة على أيدي المفسرين والنقّاد والأدباء كان غرضه ومقصده تنمية الذوق وتربيته؛ للوقوف على وجه إعجاز النظم القرآني، ومحاولة امتلاك الأدوات التي تؤهل الأديب من تذوّق النصوص– انتاجًا وتحليلًا–

ثانيا: الدربة والمران.

إذا كان العرب متفاوتين في تلك الموهبة الفطرية_ التذوُّق– فمن باب أوْلى ألَّا يستوي في تحصيلها العربيُّ وغيرُ العربيّ، كما لا يستوي في إدراك الصنعة من كان منها بسبب ومَن

---

(٣٦)ـ ينظر "حكم الذوق في النقد الأدبي د. وليد قصاب، شبكة الألوكة على الرابط الآتي:
https://www.alukah.net/literature_langu/age/0/68263/

(٣٧)ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – تأليف: ابن الأثير– تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد– المكتبة العصرية– بيروت– الجزء الأول ص٢٥.

هـو بعيـد عنهـا، يقـول السـكَّاكيُّ:" لَـيْسَ مِـنَ الْوَاجِـبِ فِـي صِـنَاعَتِهِ وَإِنْ كَـانَ الْمَرْجِـعُ فِـي أُصُـولِهَا وَتَفَارِيعِهَا إِلَـى مُجَـرَّدِ الْعَقْلِ، أَنْ يَكُـونَ الدخيل فِيهَا كالناشيء عَلَيْهَا فِي اسْتِفَادَةِ الذَّوْقِ مِنْهَـا، فَكَيْـفَ إِذَا كَانَـتِ الصِّـنَاعَةُ مُسْـتَنِدَةً إِلَـى تَحْكِيمَـاتٍ وَضْـعِيَّةٍ وَاعْتِبَـارَاتٍ إِلْفِيَّـةٍ، فَـلَا بَـأْسَ عَلَى الدَّخِيلِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي، أَنْ يُقَلِّدَ صَاحِبَهُ فِـي بَعْضِ فَتَـاوَاهُ إِنْ فَاتَـهُ الـذَّوْقُ هُنَـاكَ إِلَـى أَنْ يَتَكَامَلَ لَهُ عَلَى مَهْلٍ مُوجِبَاتُ ذَلِكَ الذَّوْقِ " (٣٨)

ومـن موجبـات الـذوق – التـي تتكامـل لصـناعة الأديـب بالدربـة والمـران– تعلـم العلـوم الأدبيَّة، وأهمهُا علم البلاغة، وإنّما قلتُ: أهمها، ولـم أقـل: مـن أهمهـا؛ لأنَّ العلـوم فـي تحصـيل عملية الذَّوق ليست على قدم المساواة، بل هي متفاوته الرتبة، وعبارة السكاكيّ في الحديث عن مكانـة علـم البلاغـة تـدلُّ علـى ذلـك، بخـلاف الخطيـب الـذي يـرى أنَّ علـوم العربيـة جميعهـا متساوٍ مكانـةً ومنزلـةً، وقد علَّق على هذا بهاء الدين السبكي قائلا:" وقولـه: (من أجل العلوم قدرًا) (٣٩) يقع مثله فى الكلام كثيرًا، أعنى دخول "مِنْ" على " أفعل التفضيل" وإنَّما يكون ذلك فى أحد موضعين: الأوَّل: أن تكون الأفراد مستوية الرتبـة فـى تميزهـا علـى غيرهـا، فيقـال عـن كـل منها: إنَّه الأفضل؛ لأنَّه بعضه فيصح ما ذكره المصـنف إن كانـت علومًـا مسـتويةً الرتبـةً. وهيهـات أن يعلـم ذلـك، أمَّـا إذا كانـت العلـوم متفاوتة، فلا يصح أن يقال عن أعلاها: إنّه من خيرها، بـل هـو خيرهـا، ولا يقـال عمَّـا يليـه: إنـه مـن خيرهـا؛ لأنَّـه لـيس شـيئًا منـه، تقـول: زيـدٌ أفضـلُ النـاس، ولا يقـال: مـن أفضـلهم، إلَّا إذا كـان لـه مسـاوٍ. الثـانى: أن يكـون بعـض أنـواع الحقيقة أفضل أنواعها، فيقال حينئذ عن ذلك النـوع: إنَّـه خيرهـا، فيلـزم عنـه أن يقـال عـن كـل فـرد مـن أفـراده: إنـه مـن خيرهـا، أى مـن النـوع الـذى هـو خيرهـا... وعبـارة السـكاكى: أن هـذا أعظم العلوم، وكأنَّ المصنف أتى بـ" من" خلافًا له، وقد يوجه كلام السكاكى بأنَّه إذا كانت وجوه الإعجاز لا تُدرك إلا بهذا العلم – كما ادَّعوه – صـدق أنَّـه أعظـم العلـوم؛ لتأديتـه إلـى علـم الأصول الشرعية " (٤٠)

فالبلاغـة العربيَّـة فـي مقدمـة العلـوم التـي يجـب علـى الأديـب أن يتعلمهـا، وهـذا مـا أقره العلوي قائلا:" أمَّا بعد فإنَّ العلوم الأدبيَّة وإن عَظُمَ الشرف في شأنها وعلا على أوج الشمس قـدرها ومكانهـا، خـلا أنَّ علـم البيـان هـو أميـر جنودها، وواسطة عقودها، فلكها المحيط الدائر وقمرها السامر الزاهر، وهو أبو عذرتها، وإنسان مقلتهـا، وشـعلة مصـباحها، وياقوتـة وشـاحها، ولـولاه لـم تـر لسـانا يحـوك الوشـي مـن حلـل الكـلام، وينفـث السـحر مفتـر الأكمـام ، وكيـف لا؟! وهـو المطَّلـع علـى أسـرار الإعجـاز، والمستولي على حقائق علم المجاز، فهو من

(٣٨)ـ مفتاح العلوم ص ٩٦

(٣٩)ـ الإيضـاح لتلخيص المفتاح للخطيب القذويني– ضمن شروح التلخيص– الجزء الأول– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ص ٤٩ – بدون تاريخ.

(٤٠)ـ عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص– تأليف– بهاء الدين السبكي– ضمن شروح التلخيص– الجزء الأول– دار الكتب العلميـة– بيـروت– لبنـان– ص ٥٣ – بدون تاريخ. الجزء الأول– ص ٥٠

العلـوم بمنزلـة الإنسـان مـن السـواد، والمهـيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد"[٤١]

العلوم التي يفتقر الأديب إليها:

عُنيتْ بعضُ المؤلفات –كما قلت– بإعداد الأديـب، وبيـان العلـوم التـي يفتقـر إليهـا؛ بغيـة الوصول إلى تذوُّق النصّ القرآنيّ، والكشف عن مكنـون أسـراره وسـر إعجـازه، واسـتخراج أسـرار البلاغـة مـن مجـارى كـلام العـرب الفصـحاء، " والتَّمَلِّـي مِـنْ أَسَـالِيبِهِمْ فِـي خُطَـبِهِمْ وَأَشْـعَارِهِمْ وَأَمْثَـالِهِمْ وَعَوَائِـدِهِمْ وَمُحَادَثَـاتِهِمْ، لِيَحْصُـلَ بِـذَلِكَ لِمُمَارَسَـةِ الْمُوَلَّـدِ ذَوْقٌ يَقُـومُ عِنْـدَهُ مَقَـامَ السَّـلِيقَةِ وَالسَّجِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَبِيِّ الْفُحِّ " وَالذَّوْقُ كَيْفِيَّةٌ لِلنَّفْسِ بِهَا تُدْرِكُ الْخَوَاصَّ وَالْمَزَايَا الَّتِي لِلْكَلَامِ الْبَلِيغِ"[٤٢]

ومن أوائل الذين تحدثوا عن الشروط الواجب توافرها في الكاتب والأديب ما ذكره ابن قتيبة الدينوري في كتابه(أدب الكاتب) [٤٣] وتبعه أبو هلال العسكري في (كتاب الصناعتين) [٤٤]

وتحـرص الدراسـة أن تمـنح هـذه العلـوم تفصيلًا من خلال ما ذكره كل من ابن الأثير والعلـوي، يقـول ابـن الأثيـر:" اعلـم أنَّ صـناعة تـأليف الكـلام مـن المنظـوم والمنثـور تفتقـر إلـى آلات كثيرة، وقد قيل: ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كلّ ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه، فيقول: فلان النحوي، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة، فيقول: فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن، وملاك هذا كلّه الطبع ؛ فإنه إذا لم يكن ثمّ طبع فإنَّه لا تغني تلك الآلات شيئًا؛ ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يُقدح بها؛ ألا ترى أنَّه إذا لم يكن في الزناد نارٌ لا تفيد تلك الحديدة شيئًا... وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعًا(أي ذوقًا) قابلًا لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات: النوع الأول: معرفة علم العربيَّة من النحو والتصريف. النوع الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشيّ الغريب ولا المستكره المعيب. النوع الثالث: معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام؛ فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضا. النوع الرابع: الاطّلاع على تأليفات من تقدَّمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة، والتحفظ للكثير منه. النوع الخامس: معرفة الأحكام السلطانية: الإمامة، والإمارة، والقضاء، والحسبة، وغير ذلك. النوع السادس: حفظ القرآن الكريم، والتدرّب باستعماله وإدراجه

---

[٤١] – كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – تأليف/ يحى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني– تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الأولى– ١٤١٥هـ ١٩٩٥م ص٣.

[٤٢]ـ التحرير والتنوير الجزء الأول ص ٢١.

[٤٣]ـ ينظر: أدب الكاتب_ تاليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري_ تحقيق: الأستاذ/ علي ناعور– دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الخامسة– ص ١٥– ٢١.

[٤٤]ـ ينظر: الفصل الأول والثاني من الباب االثالث في كتاب الصناعتين ص ١٥١– ١٧٦.

في مطاوي كلامه. النوع السابع: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي – صلّى الله عليه وسلّم– والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال. النوع الثامن: وهو مختص بالناظم دون الناثر– وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر" (٤٥)

ويقول العلوي أيضًا في شأن العلوم الواجب على الأديب تحصيلها:" اعلم أن إحرازه إنَّما يكون بإحراز ما يحتاج إليه من العلوم الأدبية. ولما كان المقصود به هو الاطلاع على حقائق علوم الإعجاز، والإحاطة بعلم الفصاحة والبلاغة فما كان أصلًا فى معرفة هذه الأشياء فهو مفتقر إليه، وما لا يحتاج إليه فى هذه الأشياء فهو غير مفتقر إليه، فصارت العلوم بالإضافة إلى ما تفتقر إليها وتستغنى على ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: **لا يفتقر إليها بكل حال:** وهذا نحو العلوم العقلية، كالعلم بالمباحث الكلامية والطبّ. والفلسفة وأحكام الحساب، وغير ذلك من علوم العقل. فما هذا حاله من العلوم فلا يستمدّ منها ولا تكون طريقًا إليه.

المرتبة الثانية: ما يكون مفتقرا إليها: ولا يمكن الوصول إليه إلا بها وبإحرازها وهى آلة فيه. وذلك أنواع ثلاثة: النوع الأول منها: معرفة اللغة

مما تداولته الألسنة وكثر استعماله وصار مألوفا؛ لأن موضوعه هو البلاغة والفصاحة وهما من عوارض الألفاظ والمعانى...النوع الثانى: علم العربية: وهو من جملة موضوعات هذا العلم العظيمة التى لا سبيل إليه إلا بإحرازها، وهو منه بمنزلة أبى جاد للخط العربىّ. وبه يحصل قوام أمره وإحكام أصوله. نعم ليس مختصًّا بهذا العلم وحده، بل ينبغى معرفته لكلّ من ينطق باللسان العربىّ، فإنه لا غنى له عن معرفته، ليأمن من زلل اللحن وسقطه، ويستفيد بمعرفته الاطّلاع على المعانى المفيدة والجمل المركبة... النوع الثالث: علم التصريف: فإنه علم جليل القدر غزير الفوائد. وهو يختص بتصحيح أبنية الألفاظ المفردة ومعرفة صحيحها ومعتلّها وزائدها وأصيلها ومبدلها من أصيلها إلى غير ذلك من أنواع التصريف على قوانين جارية على أقيسة كلام العرب وأساليبها. ومن لم يحرزه فإنه لا يأمن الوقوع فى محذور الكلام ومكروهه... **المرتبة الثالثة: مما يكون متوسطا بين المرتبتين السابقتين فلا يستغنى عنه ولا يفتقر إليه غاية الافتقار**، بل هو جار مجرى التتمة والتكملة فى التحسين والكمال. ولا ينخرم المقصود إن هو لم يحصل. وهذا نحو العلم بالأمثال العربية وما يؤثر عن العرب من الحكم والآداب فى المحافل والاستظهار بمطالعة الدواوين والرياضة بحفظ الأشعار، فإن ذلك يفيد حنكة، وتجربة، ويكون عونا على إدراك البلاغة والفصاحة، ويفيد الاطّلاع على أسرار الإعجاز" (٤٦)

وليس معنى ذلك أن يكون الأديب محيطًا بهذه العلوم إحاطة تامة، وإنَّما المراد أن تحصل

(٤٥)- المثل السائر الجزء الأول ص ٢٨،٢٩.

(٤٦)- الطراز، ص ١٣– ١٧ بتصرف كبير.

له بها معرفة ودراية، يقول العلوي:" اعلم أنَّا وإن أوجبنا على من أراد الخوض فى علوم البيان وإحرازها أن يحصل على ما ذكرناه من هذه العلوم الأدبية، فلسنا نريد أن يكون محيطًا بأسرارها مستوليًا على جميع دقائقها، فذلك متعذر، بل ربما يستغرق الإنسان عمره فى واحد منها فلا يعتبر أن يكون فى اللغة بالغًا مبلغ الفراء، وأبى عبيد، ولا يكون فى العربية بمنزلة الخليل، وسيبويه، ولا فى علم التصريف على رتبة المازني، وابن جني، ولكن يحرز لنفسه قدرًا من الفضل فيها يمكنه به الخوض فى علومها، ويعرف مصطلحاتهم فيطلب حاجته من كتبهم وأوضاعهم، فمتى حصل على هذه الحالة أمكنه السلوك لطرائقهم، وأن يرد مواردهم"(٤٧)

المقصد الثالث

الكشف عن وجوه الإعجاز القرآني

قد تشتمل الآية من القرآن على شعبة من شُعَب الإيمان، أو مَعْلَمٍ من معالم الشريعة، أو حكم فقهيٍّ أو أمر عقائديٍّ أو شأن غيبيٍّ أو خلق إسلاميٍّ أو قصة مؤثرة، أو موعظة بليغة، وقد تجتمع هذه المعاني كلُها في آية واحدة وقد تخلو من بعضها، إلَّا أنَّ الذي لا تخلو منه آية هو دقَّة النظم وحسن التأليف، ولذا كان مناط التحدي من جهة نظم القرآن وتأليفه، والكشف عن وجوه إعجازه وبلاغته.

وهذا المقصد دينيٌّ متفرد لذاته من مقاصد البلاغة، دون سائر أجناس التأليف والإبداع الأخرى شعرًا ونثرًا، إنتاجًا وتحليلًا، وبسببه كانت رتب المفسرين متفاوتة، والمسافة بينهم متباعدة، وقد أدرك هذا المعنى الزمخشريُّ في كشَّافه قائلًا:" اعلم أنّ متن كلّ علم وعمود كل صناعة- طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالمُ العالمَ لم يسبقه إلَّا بخطا يسيرة، أو تقدّم الصانعُ الصانعَ لم يتقدّمه إلا بمسافة قصيرة، وإنَّما الذي تباينتْ فيه الرتبُ، وتحاكتْ فيه الرُكبُ، ووقع فيه الاستباقُ والتناضلُ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقَّى إلى أن عُدّ ألفٌ بواحدٍ ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدقُّ فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يَكْشِفُ عنها من الخاصة إلا أوحدُهم وأخصُهم، وإلا واسطتُهم وفصُهم، وعامتُهم عماة عن إدراك

(٤٧)- الطراز، ص ١٧.

حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد... فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلمُ وإن بزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظُ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظُ وإن كان من الحسن البصريّ أوعظ، والنحويُّ وإن كان أنحى من سيبويه، واللغويُّ وإن علك اللغات بقوّة لحييه لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهَّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانِّهما همةٌ في معرفة لطائف حجة الله، وحرصٌ على استيضاح معجزة رسول "(٤٨)

ولأجل هذا التفاوت الشديد الذي نص عليه الزمخشري حتَّى عُدَّ ألفٌ بواحد، لا يتوافر هذا المقصد إلا لصاحب الذوق السليم، من خلال معايشة كلام العرب والنسج على منوالهم في التعبير عن معانيهم وأغراضهم ومقاصدهم، وهي معايشة قد تحدث بالسليقة والسجية" كَالْمَعْرِفَةِ الْحَاصِلَةِ لِلْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، وقد تحدث بالتَّلَقِّي وَالتَّعَلُّمِ كَالْمَعْرِفَةِ الْحَاصِلَةِ لِلْمُوَلَّدِينَ الَّذِينَ شَافَهُوا بَقِيَّةَ الْعَرَبِ وَمَارَسُوهُمْ، وَالْمُوَلَّدِينَ الَّذِينَ دَرَسُوا عُلُومَ اللِّسَانِ وَدَوَّنُوهَا" (٤٩)

ولقد اشترط البلاغيون وأهلُ الإعجاز لمن يتصدَّى للبحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ما اشترطوه في الأديب، وهو أن يكون المتكلم ملمًّا بعلوم العربيَّة؛ لأنَّ هذا الباب– كما يقول الباقلانيُّ– ممَّا لا يمكن إحكامه إلَّا بعد التقدم في أمور شريفة المحل عظيمة المقدار دقيقة المسلك لطيفة المأخذ" (٥٠) وخاصة علم البلاغة؛ لأنَّه –كما يقول العلويُّ– لا غنى للمفسر عنه في معرفة إعجاز القرآن:" ومَنْ أحاط علمًا بالفصاحة، وتغلغل فكره فى إحراز أسرارها، عرف أنَّ بين ما ورد فى التنزيل، وبين ما أُثر عن العرب فيما أوردناه من المثال فى الفصاحة والبلاغة، بونًا لا تدرك غايته، وبعدًا لا يحصر تفاوته، ولهذا فإنَّه من كان من المفسّرين نظره فى تفسير كلام الله مقصورًا على معرفة المعانى الإعرابية، وبيان مدلولات الألفاظ الوضعية لا غير، من غير بيان ما تضمنه من أنواع الفصاحة والبلاغة، وتقرير مواقعهما الخاصة. فإنَّه يعدّ مقصّرًا في تفسيره لكونه قد أخلّ بمعظم علومه، وأهملها وأعرض عن أجلّ مقاصده وتركها. وهو معرفة الإعجاز، لأنَّه

(٤٨)ـ تفسيرالكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل– تأليف/ الإمام إبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى ٥٣٨هـ– تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الأولى– ١٤١٥هـ ١٩٩٥م– المجلد الأول ص٧

(٤٩)ـ التحرير والتنوير الجزء الأول ص ١٨.

(٥٠)ـ ينظر إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني– الناشر : دار المعارف – القاهرة – تحقيق : السيد أحمد صقر ص٥

موقوف على ما ذكرناه من معرفة الفصاحة والبلاغة جميعًا [٥١] ولِأَنَّ" الْقُرْآنَ كَلَامٌ عَرَبِيٌّ فَكَانَتْ قَوَاعِدُ الْعَرَبِيَّةِ طَرِيقًا لِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَبِدُونِ ذَلِكَ يَقَعُ الْغَلَطُ وَسُوءُ الْفَهْمِ لِمَنْ لَيْسَ بعربي بالسليقة، وَيَعْنِي بِقَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ مَجْمُوعَ عُلُومِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَهِيَ: مَتْنُ اللُّغَةِ، وَالتَّصْرِيفُ، وَالنَّحْوُ، وَالْمَعَانِي، وَالْبَيَانُ. وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ اسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ الْمُتَّبَعَ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ فِي خُطَبِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَتَرَاكِيبِ بُلَغَائِهِمْ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا يَجْرِي مَجْرَى التَّمْثِيلِ وَالِاسْتِئْنَاسِ لِلتَّفْسِيرِ مِنْ أَفْهَامِ أَهْلِ اللِّسَانِ أَنْفُسِهِمْ لِمَعَانِي آيَاتٍ غَيْرِ وَاضِحَةِ الدَّلَالَةِ عِنْدَ الْمُوَلَّدِينَ"[٥٢]

ونخلص من هذا أن مقاصد البلاغة متنامية متآزة ، يكمل بعضها بعضًا، حتى وإن اختلفت اتجاهاتها ومجالات اهتمامها، فبينما يعنى هذا المقصد للكشف عن وجوه الإعجاز القرآنيّ، اتجهت عناية المَقْصِدَينِ السابقين إلى القرآن وغيره من الأجناس الأدبيَّة... ولا عجب في هذا، ولا يتنافى مع طبيعة العلم وحدوده ومساحته؛ لأنَّنا إذا أمعنَّا النظر في نشأة البلاغة العربية وجدنا أنَّها من العلوم الإسلامية حتى وإن تزيتْ بزيّ العلوم الأدبيَّة، فللقرآن أثر واضح في نشأتها وتوجيه نشاطها؛ وما التزام النصوص الفصيحة في المقصد الأوَّل إلَّا حفاظًا على وحدة اللغة التي هي وعاء القرآن، وحفاظًا على تاريخ وحضارة وثقافة العرب الذين تحداهم القرآن، ولو ذهبتْ هذه اللغة بما تحمله من ثقافة وفكر وحضارة وعادات العرب ، وبما تحمله في مستوياتها الأربع من دلالات(صوتيَّة وصرفيَّة ونحويَّة ودلاليَّة) لذهب وجه التحدي الذي أعجز العرب، يقول العلويُّ:" واعلم أنَّه يراد لمقصدين: المقصد الأوَّل منها: مقصد دينيّ، وهو الاطّلاع على معرفة إعجاز كتاب الله، ومعرفة معجزة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلّا بإحراز علم البيان، والاطّلاع على غوره، فإنَّ هذا العلم لمن أشرف العلوم فى المنقبة، وأعلاها فى المرتبة، وأنورها سراجًا وأوضحها منهاجًا، وأجمعها للفوائد، وأحواها للمحامد، ومع ما اشتمل عليه من الفضائل نخصُّ هذا الموضع بذكر فضيلتين تدلَّان على غيرهما من سائر فضائله: **الفضيلة الأولى:** أنَّ الرسول –صلى الله عليه وعلى آله– مع ما أعطاه الله من العلوم الدينيَّة، وخصَّه بالحكم والآداب الدنيويَّة، لم يفتخر بشيء من ذلك، فلم يقل: أنا أفقه الناس، ولا أنا أعلم الخلق بالحساب والطب، بل افتخر بما أعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة، فقال عليه السلام: " أنا أفصح من نطق بالضاد" ، وقال عليه السلام:" أوتيتُ خمسًا لم يعطهن قبلى أحد؛ كان كل نبيّ يُبعث إلى قومه، وبُعثتُ إلى كل أحمر وأسود، وأحلتْ لى الغنائم، وجعلتْ لى الأرض مسجدًا وطهورًا، ونصرت بالرّعب بين يدى مسيرة شهر، وأوتيت جوامع الكلم" **الفضيلة الثانية:** أنَّه لولا علوّ شأنه، وارتفاع قدره، لما كان خير كتب الله المنزَّل على أفضل أنبيائه، إعجازه متعلِقًا به، فإنَّ القرآن إنَّما كان إعجازه من أجل ما اشتمل عليه من

---

[٥١]- الطراز ص١١، ١٢.

[٥٢]- التحرير والتنوير ص١٨.

الفصاحة والبلاغة، ولم يكن إعجازه ما اشتمل عليه من أنباء الغيب، ولا من الحكم والمواعظ وغيرها من الأوجه "(٥٣)" (٥٤)

كما أنَّ تنمية الذَّوق وإن كان غرضًا عامًا، يصلح لأجناس الخطاب المختلفة شعرًا ونثرًا – انتاجًا وتحليلًا– فمرجعه في الأساس يصبُّ في خدمة الإعجاز، وهل يعوَّلُ على شيء في فهم الإعجاز إلَّا على الذوق السليم؟!

إذاً فنحن أمام مقصدين وثيقا الصلة بالمقصد الثالث، ويرتبطان به ارتباطًا جليًّا، وهنا تطرح الدراسة سؤالًا: لم كلُ هذه العناية بالكشف عن وجوه الإعجاز في النَّظم القرآني، حتَّى أصبح وكأنَّه هو مقصد البلاغة الأوحد؟

وهو سؤال طالما ردَّده بعض المحدثين ، ساعين من ورائه إلى رفض فكرة ربط العلوم العربية – ومنها البلاغة– بالقرآن الكريم، بدعوى أنَّ الظواهر البلاغية من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وذكر وحذف، وإظهار وإضمار، وإيجاز وإطناب... تستوعب القرآن، والقرآن لا يستوعبها، أو بتعبير آخر: أن اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تستوعب القرآن وغيره، والقرآن لا يحيط بها، ومن ذلك ما قاله الدكتور/ نصر حامد أبو زيد " أدَّى التوحيد بين " الدين" و" التراث" إلى إضفاء القداسة على ذلك" التراث" وإلى تحويله من مرتبة النصوص الثانوية إلى مرتبة النصوص الأوَّليَّة، واقتصرت مهمة العقل على التكرار والشرح والترديد، وقد أدَّى هذا كله إلى ركود الثقافة التي عززت بدورها ركود الواقع العربي المنتج لهذه الثقافة" (٥٥) بينما يرى تمام حسان أن سبب الدعوة للجديد هو ما مُنيتْ به الدراسات اللغوية العربية من الصعوبة والتعقيد، ويشهد بذلك طلابُها وغيرُ المتخصص والأجانبُ والمستشرقون، وأنَّ ارتباط الدراسات اللغوية بالقرآن كان احترامًا أم امتهانًا؟ فيقول:" ولعلَّ نعت الدراسات العربية بهذه النعوت إنَّما جاء لعدم التجديد في منهجها، فما ورثناه عن آبائنا من خلط في التفكير اللغوي لا يزال كما هو لسببين: أوَّلُهما: الاعتقاد بأنَّ الأوائل قد أتوا بما لا يمكن أن يزيد عليه الأواخرُ، والسبب الثاني: ضيق النظرة إلى اللغة العربية، واعتبارها مرتبطة بالقرآن احتراما أو امتهانا، وقد أدَّى ذلك إلى قطع الصلة بينها وبين اللهجات العربية الأخرى القديمة والمعاصرة" (٥٦) وما سعيهم لنفي القداسة عن اللغة والتراث إلا من هذه الزاوية.

وقد يقال: إنَّ مثل هؤلاء لا يخاطبون بخطاب، ولا يجابون بجواب، ولكن أعرضنا عن هذا؛ وفاءً بحق العلم، واحترامًا للرأي.

لذا أقول: إنَّ قيمة أيِّ علم ليس بما يحويه من معارف، وإنَّما بما يمكن تطبيقه وتوظيفه من

---

(٥٣) ـ أخرجه مسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم: ٥٢١.

(٥٤) ـ ينظر الطراز ص ١٨ بتصرف يسير.

(٥٥)ـ النص والسلطة والحقيقة" إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة" تأليف: الدكتور/ نصر حامد أبو زيد– المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء– المغرب– الطبعة الخامسة–٢٠٠٦– ص٢٠

(٥٦)ـ كتاب مناهج البحث في اللغة– تأليف: دكتور/ تمام حسان_ دار الثقافة– الدار البيضاء– ١٩٧٩م ص١٢.

هذه المعارف، وفكرة ربط العلوم بعقائد الأمم ومصالحها واتجاهاتها وسياستها عالجتها أمم سابقة غير العرب، وما زالتْ أممٌ تفرض علومها وثقافتها حتى يومنا هذا... ومن ثم كان ينبغي علي هؤلاء أن يشغلوا عقولهم بالبحث عن أسباب عناية البلاغيين والأدباء بهذا المقصد حتى صار هو الأشهر والأعرف بها، حتَّى وصل الأمر أن جعلوه من تعريفات علم البلاغة، فهو عند العلويّ: العلم الذى يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز؛ لأنَّ الإجماع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنَّه لا سبيل إلى الاطّلاع على معرفة حقائق الإعجاز وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلَّا بإدراك هذا العلم وإحكام أساسه، فظهر بما قررناه فهم ماهيّته، وأن كل واحد من هذه التعريفات مرشد إلى تعريف حقيقته ومميّز له عن غيره من سائر العلوم"(٥٧)

أسباب عناية البلاغيين بهذا المقصد" البحث في وجوه الإعجاز القرآني"

ذكرتْ الدراسة في المقصد الثاني أنَّ ضعف الملكات عن إدراك معاني القرآن وفهم أساليبه كان مدعاة للاهتمام بتنمية الذَّوق وصناعة الأديب، لما يمثله الذَّوق البياني من ركيزة أساسية في فهم كثير من أمور العقيدة التي قد تلتبس على الناس، وكشف الأحكام الشرعية التي لا تقف عند حدود النصّ، فكم من أيات جنح بها المفسرون عن مقصدها بتأويل فاسد، وكم من أحكام قعد عن استنباطها واستخراج ما فيها ذوق بارد ، وكم من صَحِيحٍ قد ضُعِّف ، وضَعِيفٍ قد صُحِّح، وهذا ما ذكره الزمخشريُّ عِنْدَ تفسير قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ" (٥٨) قائلا :" وَكَمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ التَّنْزِيلِ وَحَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ، قَدْ ضِيمَ وَسِيمَ الْخَسْفَ، بِالتَّأْوِيلَاتِ الْغَثَّةِ، وَالْوُجُوهِ الرَّثَّةِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَأَوَّلَهَا لَيْسَ له مِنْ هَذَا الْعِلْمِ عِيرٍ وَلَا نَفِيرٍ، وَلَا يَعْرِفُ قَبِيلًا مِنْهُ مِنْ دَبِير"(٥٩)

ويزيد السكَّاكيُّ المعنى وضوحًا قائلًا: " لَا أَعْلَمُ فِي بَابِ التَّفْسِيرِ بَعْدَ عِلْمِ الْأُصُولِ أَقْرَأَ عَلَى الْمَرْءِ لِمُرَادِ اللَّهِ مِنْ كَلَامِهِ مِنْ عِلْمَيِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، وَلَا أَعْوَنَ عَلَى تَعَاطِي تَأْوِيلِ مُتَشَابِهَاتِهِ، وَلَا أَنْفَعَ فِي دَرْكِ لَطَائِفِ نُكَتِهِ وَأَسْرَارِهِ، وَلَا أَكْشَفَ لِلْقِنَاعِ عَنْ وَجْهِ إِعْجَازِهِ، وَلَكَمْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَرَاهَا قَدْ ضِيمَتْ حَقَّهَا وَاسْتُلِبَتْ مَاءَهَا وَرَوْنَقَهَا أَنْ وَقَعَتْ إِلَى مَنْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ، فَأَخَذُوا بِهَا فِي مَآخِذَ مَرْدُودَةٍ، وَحَمَلُوهَا عَلَى مَحَامِلَ غَيْرِ مَقْصُودَةٍ " (٦٠)

ثم انتهى به الرأي أن قال:" ... وَفِيمَا ذَكَرْنَا مَا يُنَبِّهُ عَلَى أَنَّ الْوَاقِفَ عَلَى تَمَامِ مُرَادِ الْحَكِيمِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ مِنْ كَلَامِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَى هَذَيْنِ الْعِلْمَيْنِ (الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ) كُلَّ الِافْتِقَارِ، فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ تَعَاطَى التَّفْسِيرَ وَهُوَ فِيهِمَا رَاجِل" (٦١)

فإذا أضفنا إلى ما سبق سبب آخر: وهو أن عناية البلاغيين بالإعجاز القرآني كانت دفاعًا

(٥٧) – كتاب الطراز ص٩.

(٥٨)- سورة الزمر الآية ٦٧.

(٥٩)- الكشاف الجزء الرابع ص ١٣٨،١٣٩.

(٦٠)- مفتاح العلوم، ص ٢٣١.

(٦١)- مفتاح العلوم، ص٩١

عن العقيدة وتثبيت أركانها بعدما تطرقتْ ألسنة الزنادقة والملحدين إلى نفي الإعجاز، **ولنبدأ بالسبب الأول:**

أولا: ضعف الملكات العربية.

إنَّ شأن البحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم عظيم، لا تَعيه القوالبُ العلميةُ وإنَّما تعيه القلوب والأفئدة، ولا تدركه الأبصار وإنما تستشعره البصائر، ومن هنا اختلفت منح وعطاءات القرآن للمشتغلين به على اختلاف الأنظمة والأدوات التي يتعاطون بها القرآن.

وقد أدَّى اختلاط العرب بالمولدين والأعاجم، وبُعْدُ الفترة الزمنية بين العصر الجاهلى والعصر العباسيّ إلى ضَعفِ ملكة التذوُّق لدى العرب، مما كان له أكبرُ الأثر في غموض بعض معاني القرآن، وعدمُ المعرفة ببلاغة العرب وطرائقهم في الإبانة عن أغراضهم، مما حال بينهم وبين فهم مراد الله، وهذا يفسِّرُ لنا ظهور بعض المؤلفات التي عنيت بتوضيح ما غَمُضَ على أفهامهم من أساليب القرآن الكريم على نحو ما كان من كُتُبِ المجاز؛ كـ(مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمَّر بن المثنَّى ت٢١١هـ و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة الدينوري ت٢٧٦هـ ، و(تلخيص البيان في مجازات القرآن) للشريف الرضيّ ت ٤٠٦هـ ، مع العلم أنَّ كلمة المجاز هنا لا تعني استعمال الكلمة في غير ما وضعت له، كما أُقرَّ مؤخَّرًا، وإنَّما المراد بالمجاز في كتبهم الطريق أو المعبر الذي جزنا به إلى أداء المعنى ، وهذا المعنى جليٌّ في كتاب مجاز القرآن، وإن كان مع شيء من التوسع في كتاب " تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة الدينوري، بخلاف كتاب " تلخيص البيان في مجازات القرآن" لشريف الرضيّ ؛ حيث أطلق هذا المصطلح على ما يعرف الآن بالاستعارة، لكن الهدف الذي كان يجمع هذه المؤلفات في هذه المرحلة هو توضيح ما غمض على الأفهام وربطه بأساليب العرب وطرائقهم في التعبير، والرد على المنكرين لفكرة المجاز، ثم توالت الجهود بعد ذلك فألف ابن ناقيا البغدادي ت٤٨٥هـ " الجُمان في تشبيهات القرآن" وخصَّه بالتشبيهات القرآنية كما هو واضح من العنوان، وكتاب" بدائع القرآن" لابن أبي الأصبع ت٦٥٤ هـ الذي عنى فيه بفنون البيان والبديع...

ثانيا: الشعوبية ونفي الإعجاز الذي به مناط التحدي.

لم تكن مهمة البيان العربيّ في تلك الفترة هي فهم معاني القرآن وتعرف أساليبه كما كان في المرحلة السابقة التي مثلتها " كتب المجاز" ، وإنَّما كانت مهمة أخرى فرضتها طبيعة العصر وامتزاج الثقافات وظهور العصبيات واختلاف الانتماءات، حتى ظهرت طائفة تنفي عن القرآن وجوه الإعجاز، مدعيين أنَّه كان في استطاعة العرب الإتيان بمثله، ولكن الله صرفهم عن ذلك، ولم يقف الأمر عند ذلك، بل وازنوا بينه وبين الشعر، وامتد بهم الضلال والهوى أن جعلوا القرآن مفضولا، وهي لعمري ردة إلى الوراء، واستجلاب للجاهلية الأولى، وكان وراء القول بالصرفة ونفي الإعجاز حركة عنصرية تعمل على تشكيك الأمة الإسلامية في عقيدتها

ومصدر رفعتها،" وكان الكلام في القرآن وإعجازه من أهم مظاهر الخصومة بين العرب وغيرهم، وتعددت مذاهب القول فيه، فكان أهم الدواعي التي دعت إلى الكلام في البيان العربي الدفاع عن القرآن ضد الذين تصدوا لإنكار إعجازه، وجحدوا بلوغه المنزلة العليا من منازل الكلام، والذين ذهبوا إلى أنَّ في كلام العرب ما يشبهه أو يدانيه، وأنَّه كان في كلام العرب من يستطعون معارضته والإتيان بمثله؛ لأن حروفه كحروفهم، وألفاظه من جنس ألفاظهم، لولا أن الله صرفهم عن محاولة معارضته" (٦٢)

ويصور الباقلاني هذا قائلًا:" فالناس بين رجلين: ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته، فقد أدَّى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين، وقد قل أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، و أسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأوَّلِ على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره؛ فمن قائل: إنَّه سحر، وقائل يقول: إنَّه شعر، وآخر يقول: إنَّه أساطير الأولين، وقالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إلى الوجوه التي حكى الله –عز و جل– عنهم أنَّهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه إليه، وذُكر لي عن بعض جهالهم أنَّه جعل يَعْذُلُه ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يُفضِّله عليه، وليس هذا ببديع من مُلْحدة هذا العصر وقد سبقهم إلى عِظَمِ ما يقولونه إخوانُهم من مُلْحِدة قريش وغيرهم، إلَّا أنَّ أكثر من كان طعن فيه في أوَّل أمره استبان رشده، وأبصر قصده، فتاب وأناب، وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوة إتقانه،لا لتصرف لسانه، بل لهداية ربه وحسن توفيقه، والجهل في هذا الوقت أغلب والملحدون فيه عن الرشد أبعد وعن الواجب أذهب" (٦٣)

ولو كان الأمر – كما يزعمون– ما الذي أسكتهم طوال فترة الوحي، ولو كان في مقدرتهم ما ظلوا طوال عشرين سنة قانعين بالهزيمة معلنين العجز عن الإتيان بأصغر سورة من مثله " وذلك أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قد تحدَّى العرب قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه، وقد بقى – صلى الله عليه وسلم– يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهرًا لهم النكير ، زاريًا على أديانهم ، مسفهًا آراءَهم وأحلامهم ، حتى نبذوه وناصبوه الحرب فهلكتْ فيه النفوس ، وأُريقتْ المهج، وقُطِّعتْ الأَرحام ، وذهبتْ الأموال. ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لب، وقد كان قومه –قريش خاصة– موصوفين برزانة الأَحلام، ووفارة

(٦٢)ـ ينظر البيان العربي" دراسة في تطور الفكرة العربية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى" دكتور/ بدوي طبانة– الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية– الطبعة السادسة– ص ٢٣ بتصرف يسير.

(٦٣)ـ ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص٥

العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون، وقد وصفهم الله – تعالى– في كتابه بالجدل واللدد، فقال سبحانه: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بل هُمْ قومٌ خَصِمون}[٦٤] وقال سبحانه: " وتُنذِرَ بِه قوما لُدًّا" [٦٥] فكيف كان يجوز – على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة – أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه، وأن يضربوا صفحًا ، ولا يحوزوا الفلح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه ... وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة؛ أي صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورًا عليها ، وغير معجزة عنها؛ إلا أن العائق من حيث كان أمرًا خارجًا عن مجاري العادات "[٦٦]

وقد واكبت البلاغة العربية هذه المرحلة الحَرِجَة من عُمْرِ الإسلام، وقامتْ بدورها خيرَ قيام، ودراتْ معها حيث تدور، فأعلن علماؤها النفير، والتصدِّي لتلك الحملة الشعواء على القرآن الكريم، فتنوعت مؤلفات العلماء في الحديث عن الإعجاز بين التنظير والتطبيق، وصدق القائل: التفاضل – أطال الله بقاءك – داعيةُ التنافس؛ والتنافسُ سبب التحاسد؛ وأهل النقص رجلان: رجل أتاه التقصيرُ من قبَله، وقعَد به عن الكمال اختيارُه، فهو يساهم الفضلاءَ بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمهِ؛ وآخرُ رأى النقص ممتزجاً بخِلقَته، ومؤثّلاً في تركيب فطرته، فاستشْعر اليأس من زواله، وقصُرتْ به الهمةُ عن انتقاله؛ فلجأ الى حسَد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأماثل؛ يرى أن أبلغَ الأمور في جبر نقيصته، وستْر ما كشفه العجزُ عن عورته اجتذابُهم الى مُشاركته، ووسمُهم بمثل سِمَتِه، وقد قيل:

وإذا أرادَ اللهُ نشْرَ فضيلةٍ ...

طُوِيَت أتاحَ لها لِسانَ حسودِ

صدق والله وأحسن! كم من فضيلة لو لم تستَتِرْها المحاسد لم تبرحْ في الصدور كامنة، ومنقبةٍ لو لم تُزْعِجْها المنافسة لبقيت على حالها ساكنة! لكنها برزتْ فتناولتْها ألسنُ الحسَّد تجلوها، وهي تظن أنها تمحوها، وتشهَرُها وهي تحاولأن تستُرَها؛ حتى عثَر بها مَن يعرف حقها، واهتدى إليها مَنْ هو أولى بها، فظهرت على لسانه في أحسن معرِض، واكتست من فضله أزينَ ملبس؛ فعادت بعد الخمول نابهة، وبعد الذبول ناضرة، وتمكنت من برِّ والدها فنوّهت بذكره، وقدَرت على قضاء حقِّ صاحبها فرفعت من قَدْره (وعَسى أن تكْرَهوا شيْئاً وهُوَ خيرٌ لكُم[٦٧])[٦٨]

فلولا حديث هولاء الملاحدة عن نفي الإعجاز والخوض فيه، لما كانت هذه الجهود

---

[٦٤]ـ سورة الزخرف الآية٥٨.

[٦٥]ـ سورة مريم الآية ٩٧.

[٦٦]ـ ينظر: إعجاز القرآن للخطابي– تحقيق/ محمد خلف الله – دكتور محمد زغلول سلام – الطبعة الثالثة– دار المعارف بمصر– ص٢١–٢٣

[٦٧]ـ سورة البقرة الآية ٢١٦.

[٦٨]ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه– المؤلف: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)– تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي– الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه– ص ١، ٢.

الطيبة، والمؤلفات القيمة عن إعجاز القرآن، وخاصة ما جاء في مقدمات كتبهم؛ لأن مقدمات كتب علمائنا الكرام البررة تحمل هواجسهم وطموحاتهم وهمومهم ورغباتهم وأهدافهم وغاياتهم، وقد ظهر هذا جليًا في مقدمات الكتب التي واكبت هذه المرحلة، وكان هدف أصحابها هو الزود عن القرآن الكريم ضد من يشككون في إعجازه، وقد تنوعت هذه المعالجات تبعا لاختلاف توجه أصحابها ما بين مفسرين ومتكلمين وبلاغيين، ومن ذلك ما قاله أبو هلال العسكريُّ في مقدمة كتاب الصناعتين" اعلم- علّمك الله الخير، ودلّك عليه، وقيّضه لك، وجعلك من أهله- أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفّظ- بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه- علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحقّ، الهادى إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة، التى رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشكّ بيقينها، وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمنّه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها، وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، فى حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته ، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه. وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتمّ به؛ والقارئ المهتدى بهديه، والمتكلّم المشار إليه فى حسن مناظرته، وتمام آلته فى مجادلته، وشدّة شكيمته فى حجاجه ؛ وبالعربيّ الصّليب والقرشى الصريح ألّا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلّا من الجهة التى يعرفه منها الزّنجيّ والنّبطيّ، أو أن يستدلّ عليه بما استدلّ به الجاهل الغبىّ، فينبغى من هذه الجهة أن يقدّم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده على ما ذكرنا؛ إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه"(٦٩)

وما قاله العلوي: " أمَّا بعد فإنَّ العلوم الأدبيَّة وإن عظم الشرف في شأنها وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها، خلا أن علم البيان هو أمير جنودها، وواسطة عقودها، فلكها المحيط الدائر وقمرها السامر الزاهر، وهو أبو عذرتها، وإنسان مقلتها، وشعلة مصباحها، وياقوتة وشاحها، ولولاه ما لم تر لسانًا يحوك الوشي من حلل الكلام، وينفث السحر مفتر الأكمام ، وكيف لا؟! وهو المطلع على أسرار الإعجاز، والمستولي على حقائق علم المجاز، فهو من العلوم بمنزلة الإنسان من السواد، والمهيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد"(٧٠)

(٦٩)- كتاب الصناعتين ص ٩،١٠.

(٧٠)- الطراز، ص٣.

وفي السياق ذاته يقول:" ومن أحاط علمًا بالفصاحة، وتغلغل فكره فى إحراز أسرارها، عرف أن بين ما ورد فى التنزيل، وبين ما أثر عن العرب فيما أوردناه من المثال فى الفصاحة والبلاغة، بونًا لا تدرك غايته، وبعدًا لا يحصر تفاوته، ولهذا فإنَّه من كان من المفسّرين نظره فى تفسير كلام الله مقصورًا على معرفة المعانى الإعرابية، وبيان مدلولات الألفاظ الوضعية لا غير، من غير بيان ما تضمنه من أنواع الفصاحة والبلاغة، وتقرير مواقعهما الخاصة. فإنه يعدّ مقصّرا في تفسيره لكونه قد أخلّ بمعظم علومه، وأهملها وأعرض عن أجلّ مقاصده وتركها. وهو معرفة الإعجاز، لأنَّه موقوف على ما ذكرناه من معرفة الفصاحة والبلاغة جميعا"(٧١)

ويقول:" ومن اعتمد فى تفسير كلام الله على ملاحظة جانب الفصاحة والبلاغة، ونزّل المعانى القرآنيَّة عليها، سلم عن أكثر التأويلات النادرة، وبعد عن حمله على المعانى الركيكة التى وقع فيها كثير من المفسرين كما هو مذكور فى كتبهم"(٧٢)

ويقول الخلخاليُّ في كتابه مفتاح تلخيص المفتاح:" فإنَّ أوْلى ما يشغل الهمم العوالي، وأهم ما يُصرف إليه الأيام والليالي من العلوم الأدبيَّة هو علمُ البلاغةِ وتوابعُها، الكاشفُ عن وجه إعجاز القرآن العزيز القناعَ، المُفَصِّلُ لما أجمله إيثار أولئك المصاقع على معارضته القراع، المطلعُ على نكت نظمه، الكافلُ بإبراز محاسنه، الدالُ على صدق النبي -عليه السلام- بالتحقيق لا بالتقليد، ولولاه لم تر لسانا يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر، وينفث السحر"(٧٣)

ومن شاء فليراجع تلك النصوص المضيئة التي اشتملت عليها مقدمات كتب الإعجاز ومؤلفات المفسرين والأدباء والبلاغيين.

الممارسات التطبيقية للكشف عن وجوه الإعجاز.

لم يقف الأمر في شأن البحث في الإعجاز عند مقدِّمات الكتب، بل كانت هناك ممارسات تطبيقيَّة قدَّم العلماء من خلالها محاولات جادة للوقوف على أسرار النظم القرآني، وليست الدراسة في مِعْرَض تسجيل كل ما قام به العلماء من ممارسات تطبيقية في شأن الإعجاز، فهذا أمر يحتاج إلى جهود عديدة وأزمنة مديدة، وإنَّما هدف الدراسة أن تدلَّل على مواكبة البلاغة العربية في مقصدها الثالث لهذه المرحلة من عمر الأمة، ولذا تكتفي الدراسة بذكر بعض المؤلفات التي عنيت بالجانب التطبيقي، لعل من أبرزها ما قام بها كل من الرَّمانيّ ت٣٨٤هـ، في كتابه" النكت في إعجاز القرآن" والخطَّابيّ ت ٣٨٨هـ في كتابه" بيان إعجاز القرآن" والباقلانيّ ت٤٠٣هـ في كتابه"

---

(٧١)- الطراز، ١١،١٢.

(٧٢)- الطراز، ص١٢.

(٧٣) – مفتاح تلخيص المفتاح، للعلامة شمس الدين محمد بن مظهر الخطيب الخلخالي المتوفي ٧٤هـ- تحقيق/ هاشم محمد هاشم- المكتبة الأزهرية للتراث- مصر- الطبعة الأول- ٢٠٠٧ ص٢٨ ، ٢٩ المقدمة.

إعجاز القرآن" وعبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ في كتابيه" دلائل الإعجاز" و" أسرار البلاغة" والزمخشري ت٥٣٨هـ في تفسيره" الكشاف" والقاضي عياض ت ٥٤٤ في كتابه " الشفا في التعريف بحقوق المصطفى لإعجاز القرآن" وابن عطية ٥٤٦ في تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز" والرازي ت ٦٠٦هـ في تفسيره " التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب" وكتابه" نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"

ولك أن تسلك في هذه السلسلة المضيئة كُلَّ التفاسير التي عُنيتْ بالجانب البلاغي، والآراء المتفرقة في كتب المفسرين والبلاغيين حول الإعجاز، ثم ضع في اعتبارك ووجدانك بعد أن تذهب نفسُك في قضية الإعجاز كلَ مذهبٍ أنَّ شأنَ الإعجازِ عجيبٌ وأنَّه يُدْرَكُ ولا يُمكن وصفُه حتى يُرفع إلى ربنا بِكْرًا كأنْ لم يؤخذ منه شيءٌ، ولله در السكَّاكيّ الذي قال في نهاية مبحثي المعاني والبيان:" واعلم أنَّ شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومُدْرِكُ الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلَّا، وطريق اكتساب الذَّوق طولُ خدمة هذين العلمين، نعم للبلاغة وجوه ملتثمةٌ ربما تيسَّرتْ إماطةُ اللثام عنها لتجلي عليك. أما نفس وجه الإعجاز فلا"(٧٤)

والحمد لله على ما وفَّق وأعان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه وإخوانه من الرسل.

الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، حمدًا يليق بكمال وجهه وعظيم سلطانه، اللَّهم لك الحمد عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك... والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فقد وقفتْ تلك الدراسة- المتواضعة- مع مقاصد البلاغة العربية وتتبع كلام القدماء وهم يضعون اللبنات الأولى لهذا العلم، موضحة غرضهم المنشود وغايتهم المأمولة، و من المعلوم أن دراسة كلام هذا الجيل من أفضل أبواب العلم، بل إنَّ الكتابة في مقاصد علم البلاغة من أهم الأبواب المتروكة والمسكوت عنها، وإذا عَظُمَ المطلوبُ قلَّ المُساعد.

وقد أظهرت الدراسة في مقصدها الأول أنَّ النقاد والبلاغيين لم يعنوا بالوقوف مع أي نص كيفما جاء واتفق، وإنما اتجهت عنايتهم إلى النصوص الفصيحة التي تصور قيم مجتمعهم وأخلاقهم وفكرهم وثقافتهم وعاداتهم وحضارتهم وميولهم واتجاهاتهم، وهو ما أطلق عليه الجاحظ (مجاري كلام العرب الفصحاء)

ومع أنَّ البلاغيين غيرُ مطالبين بوضع صورة كلية متسقة للمقاصد البلاغة تستوعب جميع الأزمنة والأحوال وتستغرق جميع أجناس التعبير الأدبي الفصيح جاءت تصوراتهم لمقاصد البلاغة متنامية متآزرة، ومواكبة لكل مرحلة، ومستوعبة لجميع الأغراض بما يحقق الاستفادة المرجوة من هذا العلم، ويلائم فيض المعرفة الذي ما له من نفاد، في وقت تزاحمت

(٧٤)- مفتاح العلوم ص٢٢٧.

فيه مناهج تحليل الخطاب وتشابهت فيه بعض المصطلحات، كالأسلوبية والتداولية وعلم النص، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى التفريق بين هذه المصطلحات وعلم البلاغة، ولا يكون ذلك إلًّا في ضوء ما سطره الأوائل من البلاغيين والنقاد، فهم أدرى الناس بغاية ومقصد هذا العلم

وقد مرت البلاغة العربية في مقاصدها بمراحل مختلفة بداية بمادة الدراسة ومرورًا بالتذوق وصناعة الأديب، وانتهاءً بالبحث في وجوه الإعجاز القرآني، وإذا كان لي من كلمة أقولها فإن معايشتي لتلك الدراسة قد أسفرت عن النتائج الآتية:

أثبتت الدراسة في المقصد الأول أن اللغة العربية الفصحى هي ميدان البلاغة العربية، وبهذا تفارق البلاغة العربية علم الأسلوبية والتداولية وعلم النص، ظهر هذا واضحًا في رفض الجاحظ تعريف العتابيّ للبلاغة " كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ" ؛ لأنَّ عمومية التعريف تجعل اللكنة، والفصاحة، والخطأ، والصواب، والإغلاق، والإبانة، والملحون، والمعرب، كله سواء وكله بياناً، وكيف يكون ذلك كله بيانا؟! وتم التأكيد على ذلك من قبل المتأخرين، وأضافوا إليها شرط المطابقة ولعل هذا يوضح لنا سبب عدم انتشار البلاغة العربية مقارنة بانتشار الدراسات الأسلوبية والتداولية في الفترة الأخيرة؛ حيث وضع البلاغة حاجزًا بينها وبين دراسة العاميّ المُبتذل، والغريب الوحشيّ، والمخالفِ لقواعد النحو، والمختلِ نظمه سواء من جهة لفظه أم من جهة معناه، فهي لا تدرس الأحاديث اليومية ولا العامية ... بخلاف علم الأسلوبية وعلم النص الذي يشمل بحكم اتساع مدلولهما لدراسة النصوص بكافة أنواعها، الفصيح وغير الفصيح...ومن ثم تحذر الدراسة من زحزحة علم الأسلوبية لعلم البلاغة في عنوانات الرسائل العلمية وفي ثنايا الأبواب والفصول، كما تحذر من الاستجابة لدراسة لغة الإشارة ولغة الجسد، فمكان هذا هو علم النفس والاجتماع، أم البيان العربي فهو مقصور على الفصيح من القول مكتوبًا أو مسموعًا.

أضحت مهمة باحث البلاغة- في ضوء الفكر المقاصدي- لا تقف عند حدود البحث في نشأة البلاغة أو الوقوف مع أسرار النظم، أو تناول أعلام الفكر البلاغي فحسب، بل أصبح لزاما عليه تبصير الناشئة من الباحثين وطلاب العلم بخطورة تغيب البلاغة العربية عن طريق إحلال الدراسات الغربية محلها، التي لا يتناسب كثير منها مع تراثنا اللغوي بما تحمله اللغة من نظام معرفي وثقافي واجتماعي وأخلاقي... وما زلت أقول: إن في البلاغة العربية والتراث العربي الغناء والكفاية لو أننا أحسنَّا البناء وأحسنَّا القراءة.

٣- عناية البلاغيين بالنصوص الفصيحة تدحض كل فرية تزعم أن البلاغة ليست عربية، وإلا فكيف يحرصون على أن تكون النصوص فصيحة سعيًا لوحدة اللغة، وفي الوقت نفسه يفرطون في ثقافتهم عن طريق نقل بلاغة غير بلاغتهم؟!

٤- عنيت البلاغة العربية بالخطاب إنتاجًا وتحليلًا فاتجهت عنايتها بإعداد الأديب، القادر على تذوق النصوص ومعايشتها وتمييز جيدها من رديئها، بل جعلت البلاغة هذا **المطلب مقصدًا من مقاصدها العامة** التي تتجاوز فيه الغرض الديني؛ بغية الوقوف مع الأسرار البلاغية في فنون القول ومراحل الإبداع.

يمثل الحديث عن وجوه الإعجاز القرآن الكريم مقصدًا دينيًّا للبلاغة العربية، وقد تنوعت مؤلفات العلماء في ذلك تبعًا لاختلاف توجه أصحابها ما بين مفسرين ومتكلمين وبلاغيين، وكان هدف أصحابها هو الزود عن القرآن الكريم ضد من يشككون في إعجازه.

و بعد... فهذا ما تهيَّأ إعدادُه وتيسر إيرادُه، والحمد لله على ما وفَّق وأعان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه من الرسل.

صالح أحمد عبد الوهاب
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد
بكلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان
البريد
الالكتروني:
saleh_hahmed@hotmail.cim

المصادر والمراجع

الاتساق النصي في التراث العربي" تأليف أ. نعيمة سعدية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد خضير – بسكرة– الجزائر – مجلة كلية الآداب – العدد الخامس– ٢٠٠٩.

أدب الكاتب_ تاليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري_ تحقيق: الأستاذ/ علي ناعور– دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الخامسة.

الأسلوب دراسة بلاغية تحليلة لأصول الأساليب الأدبية – تأليف: أحمد الشايب– ط١١ مكتبة نهضة مصر –٢٠٠٠م .

الأسلوب والأسلوبية – تأليف: عبد السلام المسدي–دار الكتب الجديدة– بيروت–الطبعة الأولى– ٢٠٠٦م

إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني– الناشر : دار المعارف – القاهرة – تحقيق : السيد أحمد صقر.

إعجاز القرآن للخطابي– تحقيق/ محمد خلف الله – دكتور محمد زغلول سلام – الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر.

الأغاني– لأبي الفرج الأصفهاني– الناشر : دار الفكر – بيروت الطبعة الثانية–تحقيق : سمير جابر.

الإيضاح لتلخيص المفتاح للخطيب القذويني– ضمن شروح التلخيص– الجزء الأول– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان–

البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفق جديدة– تأليف: سعد مصلوح– مجلس النشر العلمي– الكويت– الطبعة الأولى– ١٩٧٣.

البلاغة معيار النقد الأدبي– تأليف دكتور/ عبد الحافظ إبراهيم البقري– رسالة دكتوراه.

البيان العربي" دراسة في تطور الفكرة العربية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى" دكتور/ بدوي طبانة– الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية– الطبعة السادسة.

البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥– الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– تحقيق: موفق شهاب الدين– عام النشر ٢٠٠٩م

تحت راية القرآن المعركة بين القديم والجديد – المؤلف: مصطفى صادق الرافعي– الناشر: المكتبة العصرية – صيدا – بيروت– الطبعة الأولى – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م

التحرير والتنوير – تأليف: الإمام محمد الطاهر بن عاشور– دار سحنون للنشر والتوزيع– تونس– بدون تاريخ.

التفسير الكبير، أو مفاتح الغيب– الناشر– دار الفكر– لبنان– الطبعة الأولى– ١٤٠١هـ ١٩٨١م

دلائل الإعجاز_ تأليف: الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني– تحقيق: الشيخ محمود محمد شاكر– مطبعة المدني بالقاهرة– الطبعة الثالثة– ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شروح التلخيص – دار الكتب العلمية– بيروت– بدون تاريخ– الجزء الأول.

طبقات فحول الشعراء – تأليف: محمد بن سلام الجمحي – تعليق: الأستاذ/ طه أحمد إبراهيم– دار الكتب العلمية – بيروت– ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م .

عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص– تأليف– بهاء الدين السبكي– ضمن شروح التلخيص– الجزء الأول– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ص ٥٣ – بدون تاريخ.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي المتوفي ٤٥٦هـ– تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد– دار الجيل– بيروت– الطبعة الخامسة–١٤٠١هـ ١٩٨١م.

كتاب الصناعتين – تأليف أبي هلال الحسن بن عبد الله سهل العسكري– تحقيق:الدكتور مفيد قميحة– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز– تأليف/ يحى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني– تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الأولى– ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل– تأليف/ الإمام إبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى ٥٣٨هـ– تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الأولى– ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

لسان العرب لابن منظور– دار إحياء التراث العربي – بيروت– الطبعة الثالثة– ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – تأليف: ابن الأثير– تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد– المكتبة العصرية– بيروت.

المسكوت عنه في التراث البلاغي– تأليف: الشيخ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة_ مصر– الطبعة الأولى– ٢٠١٧م .

مفتاح العلوم_ تأليف أبي يعقوب بن أبي بكر بن علي السكاكي_ الناشر: مطبعة الحلبي– مصر– الطبعة الثانية– ١٤١١هـ١٩٩٠م.

مفتاح تلخيص المفتاح للعلامة شمس الدين محمد بن مظهر الخطيب الخلخالي المتوفي ٧٤هـ– تحقيق/ هاشم محمد هاشم– المكتبة الأزهرية للتراث– مصر– الطبعة الأول– ٢٠٠٧.

مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة. تأليف: دكتور: محمد بركات حمدي– دار النشر– عمان– الأردن– ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

مقال الدكتور/وصفي أبو زيد على الرابط التالي: https://islamonline.net/22178– تاريخ الدخول ٢٠١٨/١٠/١٠.

مقال حكم الذوق في النقد الأدبي د. وليد قصاب شبكة الألوكة على الرابط الآتي: https://www.alukah.net/literature_language/0/68263/

مقدمة بان خلدون، وهي مقدمة الكتاب المسمى" كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- تأليف : العلامة عبد الرحمن ابن خلدون- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثامنة – ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م.

مناهج البحث في اللغة- تأليف: دكتور/ تمام حسان_ دار الثقافة- الدار البيضاء- ١٩٧٩م ص١٢.

النص والسلطة والحقيقة" إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة" تأليف: الدكتور/ نصر حامد أبو زيد- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب- الطبعة الخامسة-٢٠٠٦.

الوساطة بين المتنبي وخصومه- المؤلف: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)- تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي- الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. مصر.

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٦٩٥
٢	**المَقْصِدُ الأوَّلُ:**	٦٩٧
٣	**البلاغةُ العربيَّةُ والنصُّ الفصيحُ.**	٦٩٧
٤	**حدُّ البلاغة**	٦٩٨
٥	**مفهوم البلاغة عند غير العرب.**	٦٩٨
٦	**مفهوم البلاغة عند العرب.**	٦٩٨
٧	**تعريف العتَّابيِّ.**	٦٩٨
٨	**المقصد الثاني: تنمية الذوق... وصناعة الأديب**	٧٠٧
٩	**أولاً: مصطلح الذَّوق:**	٧٠٩
١٠	**ثانيا: مصطلح الدربة والمران.**	٧١١
١١	**العلوم التي يفتقر الأديب إليها:**	٧١٣
١٢	**المقصد الثالث: بيان وجوه الإعجاز القرآنيِّ.**	٧١٥
١٣	**أسباب عناية البلاغيين بقضية الإعجاز القرآنيِّ.**	٧١٩
١٤	**أولا: ضعف الملكات العربية.**	٧٢٠
١٥	**ثانيا: ظهور حركة الشعوبية.**	٧٢٠
١٦	**الممارسات التطبيقية حول الإعجاز القرآنيِّ**	٧٢٤
١٧	**الخاتمة**	٧٢٥
١٨	**المصادر والمراجع.**	٧٢٨
١٩	**الفهرس**	٧٣١